



ك. ب. ب. ل. ب. ر. ا. ت. ي.

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



LIBRARY

2

✓

لَا
يُطْلَقُ

يُطْلَقُ

297
W44mA

2
7

مَدَنِيَّةُ الْإِسْلَامِ

تأليف

محمَّد بن عبد الله
محمَّد بن عبد الله

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْبَحَارِيَّةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلَى بُمْبَصَرِ
رَضَا مَبْعَا : رَضَا مَبْعَا

58690

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمبصر
شارع الخرافش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

د ر

أنت

من

فآمن

ربنا

المبي

خلة

وب

رب

وع

نفا

فاتحة

أنشئت للطبعة الاولى سنة ١٨٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »
ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك
أنت الوهاب . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين
من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم
فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .
ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تحزننا يوم القيامة إنك لا تخلف
الميعاد » وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد الذى اجتبيته من بين
خلقك لأن يكون مستودعاً لأسرارك وناشراً لتعاليمك وواسطة بينك
وبين عبادك يهديهم بنورك الأقدس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية .
ربنا اسبغ عليه حلل تكريمك وتشريفك وبلغه المقام المحمود الذى
وعده به وألهمنا السير على هديه وهدى أصحابه وهبنا اللهم نوراً
نفهم به ما أوحيت إليه من محكم كلامك وجليل خطابك حتى نستوجب

رضاءك ونستحق نعماءك. واهد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام
 آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين إنك سميع الدعاء واسع العطاء
 ﴿ أما بعد ﴾ فانه لا يخفى على كل شرقى الآن أن العلاقة
 الشرق والغرب قد وصلت خصوصاً في الجزء الأخير من هذا الق
 إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ وأن مصالح الطرفين قد تشابكا
 تبعاً لذلك تشابكا يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما س
 من التناكر الذى كانت نتائجه دائماً اضطراب نيران الشقاق بين
 مما يدعو إلى التقاطع المنافى لمطالب المدنية المستقبلية. نعم أن الاتصا
 بين الشرق والغرب أصبح عظيماً وسيأخذ في التزايد يوماً بعد
 حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنو
 البضائع والصناعات ويحضره الناس من كافة الملل واللغات . و
 هنا لا نريد أن نبحت فيما إذا كان في هذا الامتزاج الشديد مض
 لأحد الطرفين أو فيما إذا كان مفيداً لكليهما . بل ذلك مما لا دخل
 فيه لكتابنا هذا . ولكننا نريد فقط أن نقوم بعمل خاص لا مناص
 منه على كل حال .

ما هو ذلك العمل وما وجه كونه ضروريا لا مناص منه ؟ ذلك
 العمل هو تفهيم الأوروبيين حقيقة الدين الإسلامى وماهيته وإثبات
 أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين . و
 وجه كونه ضروريا لا مناص منه فهو أن الغربيين أصبحوا بجدة
 ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامى وما داموا
 جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتابهم ضد

فانهم لا يستطيعون أن يروا في ديانة محكومهم إلا عباً ثقيلاً على عقولهم وحملات مضمناً لمداركهم فلا يقرونهم عليه إلا احتراماً لعواطفهم فقط راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهديه في المستقبل .

نقول بتمام الحرية أن الأوروبيين معذورون في تصديق التهم ضد الاسلام والمسلمين ولهم الحق في العمل ضدها ماداموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التي اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافي أصول المدنية . كيف نرجو أن يفهم الأوروبيين حقيقة ديننا وأنه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الاسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم مثل الصياح في الطرقات خائف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للادب والعقل في الموالد التي تقام في كثير من نقط القطر المصري ومثل الاجتماع إلى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينا ويساراً إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام ؟ فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب ديننا أو يالصق به شائعات التهم ؟ أليسوا معذورين في هذا الفهم السيء مادام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا في أنفسهم ميلاً إلى رأب هذا الصدع المتفاقم الذي لم يقتصر على جر عوامنا إلى المنكرات والآثام فقط . بل إلى الإخلال أيضاً بعقيدة التوحيد النقية وهو الأمر الذي لو تأصلت جذوره في العقول البسيطة صعب جداً اقتلاعه منها ؟

أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل الذي وقعنا فيه بعد ذلك الصعود السريع ما وجدها إلا في ترك السنن واتباع البدع . ولو كان المجال أوسع من هذا لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل شرية لا يراها إلا من ينظر للأشياء بمنظار العلم وان هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها انبنى عليها داء من أدواء الأمم تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهد ولو كان هو نفسه كامنا كمون الأرقم في جحره ولا يظهر إلا ريثما يؤانس ممن حوله العجز عن ملاشاته ، لهذه الأسباب كلها صار الشرقي المتنور ملقى على عاتقه واجبان : أولهما تفهيم العالم أجمع أن الدين الاسلامي فضلا عن كونه بريئا من الاضاليل التي ينسبها اليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين فانه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه : هذا الواجب يلقي على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجد بتعلم اللغات الأجنبية .

ثانيهما أن يسعى عقلاء هذه الأمة في محو البدع التي غص بها العالم الاسلامي وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق وموضوع استهزاء كل من عنده مسكة من العقل : هذا الواجب أشد ضرورة من الواجب الأول وعليه يبتنى صلاح هذه الأمة وقوامها فحسننا نلتفت إليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء والا فالعاقبة وخيمة والعهدة عظيمة . قال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران »

هذه الأفكار كانت تجيش في صدرى منذ أربع سنوات وأنا إذ ذاك في سن البدء في العمل للوطن فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة فتأبرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلنى إلى فهم حقيقة الاسلام حتى آنست من نفسى بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس . فابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنسية نفيت فيه عن الاسلام كل تهمة ألصقها به المفترون وأثبت الأدلة الحسية وبالأستناد على البدائة العلمية أنه روح المدنية الحقيقة وعين أمنية النفس البشرية ونهاية ما ترمى اليه القوة العقلية وان كل رقى يحصل فى العالم الانسانى ليس هو إلا تقرباً إلى الديانة المحمدية . ولم أكد أنتهى من تأليفه حتى بعثتنى نفسى إلى ترجمته الى لغتنا العربية الشريفة لى أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين فى آن واحد

على انى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسلياً لى على ما أضعت من وظيفة أو شهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الاسلام ليس بالدين الذى يتناساه ذووه أو يلوى الكشح عنه متبوعه . وأنه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية بل هى مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً وتزيد متبوعه إيماناً ويقيناً . وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصاراً أولى قوة ومكانة لا أن يرى منهم اعراضاً وابتعاداً يدلان الرأى على ما الاسلام يرى منه وبعيد بعد السماء عنه .

قد كفى المسلمين اعراضاً عن دوائهم واغضاء على دائهم فلا يكونوا

كالأبله الذى يحمل الدرياق الشافى فى رده فى غفل عنه ثم يفغر فيه منتظراً
 أن تمطر عليه سحاب الأوهام من سماء الاحلام غيثاً يطهره مما به ويشفيه
 من أوصابه . أليس بعار على متورى هذه الامة أن تبقى حقائق دين الله
 محتبئة فى مكاتبهم فى مطاوى مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر .
 مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون النسبة بين هذه الأفكار كلها وبين
 ما لديهم من آيات الحكمة التى أسدلوا عليها أستار النسيان أكبر بما لا يقدر
 مما بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس الأيام وخبر الأنام وعاش
 مائتى عام ؟ ألا تتوق نفس شرقى متور الى الوقوف على ذلك السر الأعظم
 والناموس الاقوم الذى ساد حيناً قصيراً على سكان جزيرة العرب على ما كان
 بهم من شظف ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والردائل الى أنوار
 المدنية والفضائل ؟ ما فائدة العلوم اذا لم تحبب الينا معاشر شبان المشرق أن
 نكتسه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذى لو طبقناه على ما لدينا من
 المعارف المدرسية لانستطيع أن ندركه ولو بوجه عام ؟ هل فيما قرأناه من
 التاريخ ما يدلنا على امكان تطور أمة بأسرها وانتقالها من حالة الوحشية الى
 المدنية فى مدة لا تتجاوز ربع القرن ؟ اللهم لا .

ما هو ذلك التطور المدهش الذى دخلت فيه الامة العربية فى مدة ثلاث
 وعشرين سنة ؟ هل هو أمر عادى يستطيع الانسان أن يدرك سره ويكتسه
 أمره بجولة فكرة أو لقاء نظرة ؟

كانت الامة العربية قبل الاسلام كما يعلمها كل انسان منقسمة الى
 قبائل عديدة وفصائل شتى كلها متوارثة الاحقاد والضغائن متأصلة
 الاحن والدفائن . واقعة فيما بينها فى حروب دموية وغارات جاهلية .

لا وحدة تلم شعثهم ولا جامعة توحد كلمتهم. وكانوا واقعين من جهة
التدين في أخس أنواع الوثنية. ومن جهة العادات في أشدها بعداً
عن الحياة المدنية. فلا قانون يصالح من حالهم. ولا قاعدة يبنى
عليها ضمان استقباهم. وبالجمله كانوا بمكان من الاختلال والفاقة
وسوء التربية تخطاهم فيه كل الملوك الفاتحين مثل بختنصر وقيروش
والاسكندر وغيرهم فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الأنام صلى الله
عليه وسلم بنحو بضعة وعشرين سنة؟ كان من أمرهم أن توحدت كلمتهم
واتحدت جهتهم ووجد فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا
جميعهم عادات آبائهم التي توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها
وخرجوا من ظلمات الوثنية إلى أنوار العقيدة التوحيدية. وقاموا من وسط
وهادهم ونجدهم يحملون للحافقين أنوار المدنية ويؤسسون أركان العدل
والانسانية في جميع أرجاء الكرة الأرضية وسادوا أغلب ممالكها بأفضل
أنواع الساطة الاعتدالية. وبالجمله صارت دولتهم دولة العالم بأسره بينما كان
غيرهم يهيم في وديان الجهالة ويضرب في ليلاء الضلالة

هذا هو التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل بعد
أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترق عما كانت عليه
قيد شبر. هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقي السريع كله حصل
بدون قواعد محكمة وأسس ممدية؟ وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن
تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه أمثال أرسطو وليكورج وسولون
من الحكم البسيطة والقواعد التي لو أصاحمت اليوم شيئاً أفسدت في الغداً أشياء
كثيرة؟ كلا. اللهم إن المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون وعن بدائعه

للاهلون . فبههم اللهم ميلا إلى ترييض نفوسهم في حقائق دينك السرمدي
وقانونك الأبدى . وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما تمتعت به
آباءهم الأقدمين إنك رحيم بالمؤمنين

وهبني اللهم من الثبات والجلد في هذا الموقف الحرج ما يسد خلة عجزى
وقصورى عن الخوض في مثل هذا العباب العظيم حتى أؤدى لأبناء وطنى
خدمة هى أمس بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرفيهم من كل قاعدة سواها
واجعل اللهم عملى هذا خالصاً لوجهك الكريم نافعا لأمة نبيك الفخيم إنك
واسع عظيم . أمين .

(فاتحة الطبعة الثانية)

التي نشرت سنة ١٩٠٤

(أما بعد) فهذه الطبعة الثانية لكتابنا (تطبيق الديانة الاسلامية على
رواميس المدنية) الذى سلكنا فى تأليفه مسلك التحليل العلمى والاستقراء
الفلسفى على قدر ما سمحت لنا وسائلنا وقوانا أمام هذا الموضوع الذى تصغر
أمامه أئبر العزائم ، وتضؤل حياله أقوى المدارك ، وإنا لنحمد الله على أن
أولانا جزاء جهادنا فيه نفحة من مراحمه ظهرت آثارها فى قبول الأمة له
بالخفاوة وتلقيها له بالتحييد والاطراء . وقد تعدى الإعجاب به من العالم العربى
إلى العالم التركى ثم إلى العالم الاوروبى . فترجمه للغة التركية بعض رجال
القضاء ، ولكنه لم يستطع طبعه لبعض الموانع التى لا تلبث أن تزول إن شاء
الله وقررت نظارة معارف الدولة العلية تدريسه فى المدرسة الاعدادية

الكلية ببيت وألقت عهداً ذلك إلى رجل من رجال المعارف السوريين المشهورين بالفطنة والدراية ولم نعهد حصول مثل هذه المزية لكتاب عصى عربي فيما نعلم .

أما سريان هذا الأثر إلى العالم الأوربي فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية بواسطة أحد العلماء المدرسين في مدارسها وتنشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تبعاً في أعدادها من هذه السنة ، وعدا عن هذا فقد سرى صيت هذا الكتاب شرقاً وغرباً وطاف أكثر ممالك الاسلام ولم ينته بعد من جولاته كما يتبين لنا من توالى طلبه ، وهو اليوم أسرع انتشاراً مما كان عليه من قبل مما يدل على المستقبل الكبير الذي أوتيه هذا الكتاب ، وهذا كله أثر من آثار تلك الرحمة الالهية التي كافأت عجزنا وقوت ضعفنا ونفعت به إخواننا زادنا الله وإياهم شعوراً بالحق وطلباً للصدق وجمعنا على كلمته العليا وصلى الله على رسوله نبي الرحمة محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فاتحة الطبعة الثالثة

ليس لدينا ما نزيده على ما قدمنا في الطبعتين الأوليين إلا أن هذا الكتاب أعادت ترجمته إلى التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية) وترجم إلى اللغة الأوردية بالهند ثم الفارسية بفارس ثم التتارية بالقازان . وقد لقي هذا المؤلف في كل قطر حله عناية وإقبالا وقد رأينا أن نعيد طبعه للمرة الثالثة وفي ذلك دليل محسوس على ما صادفه هذا الكتاب من الناطقين بالضاد ثم شرعنا في طبعه للمرة الرابعة والله نسأل أن يوفنا لمراضيه ويهدينا لمحابه إنه ولي الكفاية .

مقدمات

قد رأينا أن نهد الكلام على الاسلام بمقدمات ضرورية جداً تنشئ
 للمطالع فكرة عامة على حالة الانسان وتكاليف الحياة ونواميس الرضا
 والتأخر الذي تتجاذبه وطبيعة النظم التي تنازعت السلطة على الانسار
 من قديم الزمان إلى الآن والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين
 وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجاً في فهم ما نرمي إليه إلى بحث
 ولا تنقير وليستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسية أن الاسلام روح المدنية
 الحققة وأن لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه .

هذا وليغفر لي القراء الكرام كثرة استشهادي بأقوال علماء أوروبا فاني
 لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين . كلا . فان الاسلام أجل
 من ذلك وأعلا . بل قصدى أن أبرهن على أن كل النواميس الممدنية التي
 سادت على أوروبا في القرون الأخيرة فنقلها من الظلمة إلى النور ليست
 بالنسبة لنواميس الاسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر . فأقول
 والله المستعان :

الانسان

ما هو الانسان ؟ هل هو ذلك الجسم المادي الذي يتناوبه التحليل
 والترتيب فينمو ويقوى ثم لما يدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل
 إلى تراب تدوسه الأقدام ؟ إن كان كذلك فليس هذا إلا حيواناً بسيطاً يفضل
 الأسد بقوته والفيل بعظم جثته والقرود بعدوه وسرعة حركته ، ولما كان

له من الأهمية في هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره . أما وأبيك
لو كان الظاهر عنوان الباطن في كل شيء لسكان شأن الانسان في هذه الطبيعة
الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الأعاصير الشديدة يدفعه
تيار ويرده آخر حتى ينتهي وجوده على أسوأ ما ينتهي إليه وجود الضعيف
مع مغاليه الأقوياء . كلا إن في الأمر لسرا مكنوناً ورمزاً مصوناً كم في العلم
فيه من فائدة تهدينا في الاستقبال وفي الجرى عليها ضمانه لحسن المآل .

أدرس الانسان من مبدئه ثم انظر إليه في وقتنا الحاضر ترى عجباً
يذهب بالعقول وسرا تعجز عن اكتناحه الفحول : ترى آيات تدهش
الأفكار وتستوقف الأنظار . ترى ماذا ؟ ترى كائناً عارى الجسم لين
البشرة رقيق الحاشية ضعيف الساعد عديم السلاح ألقى به في هيجاء هذه
الحياة وحيداً فريداً وقذف به في تيار هذا الوجود طريداً شريداً يرى بعينه
الجبال الشم فيفرق من خيالها والغابات الفيحاء فيذهل من تقلب ظلالها
والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتحييه سعتها ورفعها . ويسمع زئير الضياغم
في الغابات فيكاد يصعق منه فرقاً أو يتميز رهباً وهو بين تلك الدهشة
والوحشة يحزه الحر بلفحه والبرد بنفحه ويؤلمه الجوع بحدته والعطش بشدته
كان هذا حال الانسان في مبدأ أمره فماذا ترى ن حاله الآن ؟ ترى أن هذا
الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المسلطة عليه بجلد وثبات
مدهشين وصارعها على قوتها وبطشها مصارعة البطل المغوار بقوى ليس في
زنده مستقرها وجلد ليس في جسمه مركزه حتى تغلب عليها وهو لم يكتف
بذلك . بل أسرها أسراً واستخدمها لأمانية وآماله كما يستخدم الملك المنصور
أسراء الحروب . ترى ذلك الكائن على ما به من لين وضعف قد أظهر من

ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشم فنسفتها نسفاً وعدت على الصخور
فسحققتها سحقاً وتوجهت للحديد المتين فأذابته إذابة وأبدى من ذلك الضعف
قوة اقتادت القساور صاغرة بين يديه فتراها تخضع إليه وتلعب عند قدميه
لتقر عينيه !

هل بعد هذا التدبر العلى يقال أن الانسان هو ذلك الجسم المادى
الضعف ؟ كلا بل لا بد أن يكون ذلك الجسم الطينى غلافاً لسر مكنون إن
غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره . ذلك السر هو معنى الانسانية وواهب
الميزة للانسان على غيره من أصناف الحيوان . نعم هذه بديهية لا تحتاج إلى
إثبات ، ولكن ماهى تلك المعنى الغريبة التى بسكنائها فى ذلك الجسم المادى
جعلته ملكاً لجميع الكائنات الأرضية وسلطاناً يتصرف فيها تصرف المالك
الشرعى فى ملكه ؟

لو كانت تلك المعنى الانسانية مما تقع تحت سلطة المشاعر وتدخل ضمن
دائرة المحسوسات لسهل على الباحث درسها درساً مدققاً . أو لو كانت هى
من طبيعة معنى الحيوانية محدودة الغايات والانفعالات لكان المعانى لاكتناه
أسرارها لا يكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع
النمل أو الميكروبات . ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم .
فانظر الى الانسان نظرة معمّن تره جامعا للمتناقضات جمعا يصعب معه تحديد
خصيصة من خصائصه بوجه التحقيق شاملا للتعاكسات شمولاً تضيق عن
حصر آثاره قاعدة كل تدقيق كأن هذه المعنى الانسانية بحر لا يدرك غوره
مسبار العقول ولا تنتهى إلى سواحله خطرات الأفكار البعيدة المرامى .
إذا نظرت الى الانسان من جهة أوصافه المكتسبة فيه فلا تستطيع أن

تنتهى إلى رابط يربطها ولا ناموس يضمها . فينما ترى رجلا قد عرف قدر
الاعتدال وأدرك سر السكال فقامس أمياله على مقياس الروية والتدبر ووزن
أعماله بقسطاس العدل والتوسط ترى عن يمينه رجلا ثانياً سَم الدنيا سامة
ثم ير معها مطعماً في لذة ولا مطمحاً في ثروة وكره اليه العمران كراهة حببت
اليه سكنى قذفات الجبال وحيداً فقيراً لا يملك فتيلاً ولا فقيراً وأخذ يناجي
ربه أن يزيده كراهة في دنياه وأن يكافئه على ذلك برضاه ، ثم ترى عن يسار
ذلك المعتدل رجلا ثالثاً سحرت الدنيا لبه سحراً أعماه عن رؤية الفارق
بين المحاسن والمقابح فأطلق لنفسه عنان الطيش وأفتكها من قيود العادات
والتقاليد وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل ويتقلب مع اللهو حيث يتقلب
وبينما ترى رجلا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلاً وغباوة حتى كاد يساوى
الصخر جموداً ونموداً . ترى بازائه عالماً غزير المادة واسع الاطلاع منهوماً
بكشف الأستار عن وجوه الاسرار لا يرى اللذة إلا نظرية يؤسسها أوظاهرة
طبيعية يدركها . وبينما ترى شخصاً استحوذ عليه حب الحياة حتى أوردته
موارد الجبن المخجل يظن الخيال طالباً يطلبه أو عفريتاً يرعبه . ترى تجاهه
شجاعاً يطربه وقع البيض على الخوذ ودوى المدافع في جدران الحصون
ويروقه نظر دماء الأقران تسيل على الأرض كالأرجوان : قل لي بعيشك
هل يمكن لمن نظر الى حالة الانسان من حيث قبوله لسائر الاوصاف الممكنة
أن يدعى حصرها في قاعدة أو ضمها في رابطة واحدة

ليس لأميال الانسان حد فيقف عنده بل كلما وصل الى غاية تاق الى
أبعد منها ووجد من نفسه المسكنة على بلوغها والقدرة على إدراكها حتى إذا

نالها كان فرحه بحوزها باعثا له على الاستزادة منها ومصغراً في عينه ما كان فيه من قبل .

مضى زمن اتهم فيه مكتشف أمريكا ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون لظن الناس استحالة ما كانوا يهمسون به في الآذان همساً . وجاء زمن يقول فيه علماءؤه أنه سيأتي وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين أبنائه كالفرق بيننا نحن وبين أخس الحيوانات .

هل وقف الطمّاح بالانسان عند هذا الحد المدهش ؟ كلا ان الطمع الفكرى بلغ عند الانسان مبلغاً نظر به الى حالة العلم الآن فلم يرقه شيء فيه وصغر له الطموح عظم ما نال عقب تلك الجهالة الأولى فنطق بلسان أحد علماء أمريكا قائلاً : اننا نمتاز عن أسلافنا في العلم بكوننا علمنا أننا جهلاء . أمّا هم فكانوا يعتقدون أنهم يعلمون شيئاً ! ليت شعري ما هذه المعنى الإنسانية التي تشعر بعظمتها وجلالة قدرها لدرجة لا تعد ما هي فيه الآن الا جهالة ظلماء ؟ فهي تأنف أن تغتبط بما وصلت اليه من سائر الأسرار وترى أن أمامها غاية لا تحدها الأوهام ولا تصل اليها مرامي الأفكار .

أما نحن فلا يسعنا بعد هذا الامعان إلا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الانسان والحيوان ليس هو النطق كما قال ارسطو ولا هو التفكير بالقوة كما مال اليه فلاسفة العرب ولا هو التدين كما ذهب اليه المسيو كاتر فاج . بل هو قبول الانسان للترقى العقلى والاخلاقي الى ما لانهاية له ووقوف الحيوان في درجة لا يتعداها فتكون نسبة الحيوان الى الانسان كنسبة الادراك المحصور الى غير المحصور وشتان ما بين طرفي هذه النسبة .

إن كان لا بد من الاستشهاد بقول عالم أوروبى فى مثل هذه البدائة فإليك ما قاله العلامة (لاروس) فى دائرة معارفه الكبيرة بعد أن تكلم على رقى الانسان ما نصه : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان » .

وقال الميسو (رينان) المشهور في كتابه تاريخ الأديان : « أمعنت النظر في حال الانسان فوجدته وقتا من الأوقات يبذل وسعه ويستنفذ قواه لكي يتوصل إلى إدراك السبب الذي لانهاية لحدود سلطانه ولكي يعلو على هذا العالم المادى . أفليس هذا دليلا محسوسا على أنه بسمو محتده وبحسن حظه ممتاز عن هذه الأشياء المادية المحدودة ؟ لاشك أن مشاهدة هذا الجهد من النفس لكي ترقى الى السموات العلا تبعث في المشاهدة الميل الى احترام النوع الانسانى الذى يجدر به هو نفسه أن يفتخر بنظمته افتخاراً » . انتهى

ولكن كما قضى الله للنوع الانسانى أن يكون أهلا لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل كذلك حكم عليه بأن يكون قابلا للنزول الى أخس دركات الرذائل : وفي درس تاريخ الانسان أكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر .

خلق الانسان على تمام الجهل بالكون الذى قذف به فيه بخلاف الحيوان فان الخالق جل شأنه وهبه من الالهام أكبر مرشد له لنيل ما يكفل له حياته ويحفظ لنوعه بقاءه فتراه لا ينساق إلى الافراط ولا التفريط لدرجة تؤدى به ونشأ مطبوعا على الأعمال التى تهيأ له راحة حياته من بناء مسكن واعداد محل لائق لوضع صغاره فيه إلى غير ذلك من الأمور التى يندهش منها الانسان إذا عنى بدرس علم الحيوان . أما الانسان فقد جرد من كل هذه الخصائص بالمرّة وعوض عنها هزينة الحرية فى التصرف بالقوة الفكرية تصرفا غير محجور .

وجد الانسان وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بأنه ملك كل الكائنات الأرضية وزهرة هذه العوالم الكونية فلم يثنه ضعفه وفاقة عن التطلع للنقطة الرفيعة التى أعدت له والتى يرى مثالها فى وجدانه يتلأأ أنا ثم

يخفى أنا لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوى على أعمال مواهبه وإجهادها والجرى وراء تلك المنصة العليا التي تحس بها نفسه إحساساً سرّياً بدون علم بماهياتها ولا كيفيتها . اختلف أفراد النوع الانساني على حسب الأمزجة والامكنة والازمنة في ماهية أمنية النفس البشرية وهم كل منهم على قدر ما خولته المكنة وأمكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغبة الروحية فظنها بعضهم في الملاذ البدنية والشهوات البهيمية فدأبوا على اختراع أنواع الزينة ومهيات الطرب فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها مع ما استلزمته في أثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والاعمال المفيدة . وزعمها بعضهم في علو الكلمة وبعد الصيت فجد في تدويخ البلاد وتذليل العباد فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما استلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الأمم وهبوط للبعض الآخر مما له ارتباط قوى بتدرج الشعوب في مدارج التقدم والحضارة . وحسبها غيرهم في ترويض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية واستثمارها فنشأت من ذلك علوم الأخلاق والأبحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية مما كان له أثر عجيب في تنمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية . وعلى هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات في البحث عن السعادة النفسية المتمناة تم للانسان من الرقي ما بلغه الآن . وسيستمر هذا الانفعال النفسى وراء هذه السعادة المرجوة حتى يتم الابداع الذى أراده الله أن يتم على يد هذا النوع الانساني

في أثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالا هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيوحي إليهم الطريقة الملائمة لعصورهم

والتي لو انتهجها الانسان لوصل إلى سعادته من أقرب الطرق الموصلة إليها .
فكان يتبعهم من الناس من قدر الله أن يكون على أيديهم نقل النوع الانساني
من حالة إلى أرقى منها فيستمرون عاملين بما أخذوه من نبي زمانهم برهة
قصيرة ثم يعودون إلى تدافعهم الأول بعد أن يحرفوا نصوص كتبهم تحريفاً
يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط أهوائهم ولا يزالون كذلك حتى تهيشهم
نواميس الحياة إلى صعود درجة أخرى من سلم المدنية والترقي فيرسل الله
تعالى إليهم رسولاً من أنفسهم يكون في مقدمتهم عند اعتلائهم تلك الدرجة
الجديدة . وهكذا كان شأن الأمم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل
الانساني وصار مقتدرأ على تمييز الغث من السمين فأرسل الله سيد الأنام
وخاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم بالشرعية الخالدة والدين الأبدى .
ولا يهولنك ما ترى من آثار التجالد الفكري والتضارب العقلي بين سكان هذه
الكرة ولا تستنتجن من ذلك قرب ظهور نبي آخر فان كل ما تراه حاصل
أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو إلا إعداداً لأبناء القرون
الحاضرة والمستقبلة إلى فهم حقيقة الاسلام وإدراك أسرارها . نعم « سنريهم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه
على كل شيء شهيد » .

تكاليف الحياة

الحياة وما أدراك ما الحياة : حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان
وتخضع لها الرؤوس ذوات التيجان . يتساوى فيها المليك والمملوك والسرى
والصعلوك والجهال والعلماء والأغبياء والحكماء . بل هي مورد تنزاحم حوله
النفوس ولا تفوز بحسوة منه إلا بعد أن تصادم العظام وتتجشم الدواهي

الدواهم وهى حسوة ممزوجة بالأكدار مشوية بالأوضاع يغص بها حاسيه
غصة تعجز الطب والأطباء وتتعاصى على كل دواء .

حياة الإنسان وما أدراك ما حياة الإنسان : مدة قصيرة الأمد كثيرة
الهم والسكد يكون الإنسان فيها هدفاً لسهام الحوادث وعرضة لنبال
الكوارث لا تغنى عنه الجنى الواقية ولا الدروع المضاعفة ولا الحصون
الشائخة ولا البروج الشاهقة . سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده ملازمة
العرض للجوهر فيشب الإنسان ويشيب وهى لا تفتر عن وخزه ولا تقصر
عن طعنه حتى يسود الإنسان أن لو كان من بعض الحيوان ولو يمن لعلو
مكاته بما تشيب لهوله نواصى الأجيال ولو تستطيع أن تحتمله شوامخ
الجبال ، كلا . « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين
أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » .

لست أيتها الإنسان ملكاً فتكون بمعزل عن دواعى الشهوات ومنغصاتها
ولست حيواناً فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها بل قضى
خالقك جل شأنه أن تكون بين هاتين الرتبتين فى منزلة أن حفظت لنفسك
فيها حق حرمتها خدمتك الأملأك ورفعتك على الأفلاك ولو قصرت فى
واجب نفسك وخضعت لسلطان البشرية فيك لنزلت إلى منزلة من الضعة
يعافها أخس الحيوانات ويأنف مما أنت فيه من السوآت . هذا حظك قد
خطه بارئ النسم من القدم وأودع فيك من الاستعداد والقابلية ما يسمو
بك إلى المحل الذى يليق بك من الكمال والرفعة . وأسكن فؤادك عقلاً يضئ
عليك حوالك الأحوال ويفكك عنك أغلال الأهوال لو أحسنت
استشارته وأجريت اشارته . ولم يخلق ماتراه أمامك من المصاعب والمصائب

لتعذيبك على غير جدوى أو لكى يسمع عويلك من البلوى ، بل تذكرة
تقيمك من عثرة وتحملك من كبوة وتزعك من هلكة : « ظهر الفساد فى
البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم
يرجعون » . نعم ليس ماتراه أمام عينيك من الأوهوال أو ما يعترض
أمانيك من تقلبات الأحوال عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك .
فلا تكن كالطفل العاصى يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسياً عليه غير حان
إليه . كلا : « الله أرأف بعباده من هذا العصفور على فرخه » . حديث شريف
سبق أن بينا فى مقالنا السابق أن الانسان مستعد لأن يرقى أوج
الملوك الأعلى ومستأهل لأن يتسلم هذه الرتب القصوى مما لا يحده
وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المداحين . فاذا تقرر لديك ذلك فما
هى الوسائل التى يجب أن ترفعك من معهد هذا الطين الميت إلى محدد ذلك
النور الحى ؟ أتريد أن تنزل اليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك إلى
ما أعد لك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة ؟ أن قلت نعم فما الفائدة إذن
من إيداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى مما لو التفت إليه قليلا ولو
قدر التفاتك الى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن فى فؤادك كنزاً لو أنفدت
عمرك فى تدبر ذخائره لما وصلت إلى عشر عشرينها ؟ كنز يصغر اليك
شأن الذهب الابريز والجوهر العزيز ويبعثك قسرا عنك لالئاس الرتبة التى
تليق بعظمتك من هذا الوجود ويريك أن سفاسف الأمور ودنيا الأعمال
ليس مما يجوز لمثلك أن يعيرها فكراً أو يمر بها مرأ : « ما وسعتنى أرضى
ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبيد المؤمن اللين الوادع » .
حديث قدسى

أيه أيها الانسان ! أنك عن نفسك لمحجوب ومن أشرف مزاياك
لمسلوب ، ليس مثلك من يهتز خرافات الشعراء فيذم معهم الزمان والمكان

ويقتبا كى على ما سيكون وما قد كان . ليس مثلك من يستमित لكسرة أو يقتل صديقه لأجل إبرة أو يبيع رداءه فى سبيل الخمرة ! ما هذه الغفلة ! ماهذه السكره ! بل ما هذا الموت ! أضعت أيامك فى تخيل المصائب والخشية من النوائب وصرفت همك فى أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان ؟ هل يليق بمن يحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه فى فكره وهو جالس مع صاحبه أن يتدنى إلى درجة من الاستكانة والمهانة يضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخزية يفعلها أو غيبة يتلظ بها حتى إذا تجلت له نتائج تهامله وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فرائضه رعباً وارتجت مفاصله رهباً وأخذ ينادى وامصيتاه ثم يأخذ يبكى بكاء الشكى ويذرف الدموع الحرى مغمضاً عينه عن النظر وبصيرته عن تبين العبر فيضيع بجهله مزية ما يرفعه إلى محتده الأعلى ومركزه الأسمى ؟ « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »

إن الذى تسميه مصائب أيها الانسان ليس هو إلا يد الجبار الأعلى تستلفتك إلى الغاية التى خلقت لأجلها وتبعثك من جدث الجمود الذى أوقعك فيه تماديك فى الغى المزرى مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائر المنيفة . نعم إن الذى خلقك من الطين الأصم وأراد أن يعلو بك إلى أعلى مراكز السكال ساط عليك عوامل ثلاثة لو تبصرت فى مصاعبها وتدبرت فى أسبابها ومسبباتها لرأيت أن طريق السعادة التى تشدها وتموت بحسرة دونها هو بين يديك وامام عينيك وما عليك إلا أن تجرى على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل الى غرضك العظيم : « انا هديناه السبيل »

ما هى تلك العوامل الثلاثة المهمة ؟ هى الطبيعة ونفس الانسان وبنو نوعه . أما الطبيعة فهى محتدة جسم الانسان بها ترتبط سعادته المادية ومنها

ينبوع راحته الحسية . قذف الانسان من يوم خلق الى هذا العالم المادى فتلقاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة وهو كما وصفه العلامة (لينيه) عارى الجسم وبدون سلاح فوخزته الشمس بحرارتها والأرض برطوبتها والسماء فأمطارها والصحارى بسمومها وأعاصيرها والوحوش بأنيابها وأظفارها فصار الانسان بين هذه العوامل هدفاً لسهام لا مجن بقية منها ولا وسيلة تبعده عنها . فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الادراكية لما أمكنه أن يعيش طريقة عين ، ولكن الله جل جلاله قد قذف به إلى هذه الأهوال بعد أن منحها من المواهب ما يستطيع بها أن يتغلب على الطبيعة ويأسرها فلم تفل عزيمته ولم تثبط همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد وابتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتاً ما . ولم يزل يجد ويجتهد في تحسين تلك الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيئاً فشيئاً فصار يتمكن من بناء البيوتات بعد سكنى المغارات ويحرث الأرض ليستخرج خيراتها بعد أن كان يتغذى بجذور الأشجار وأوراقها وهكذا ، ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طريقة عين بتقدير العزيز العليم كي لا تركد همته وتسكن حركته فصار كلها أتقن عملاً عدت الطبيعة عليه فيلتجئ إلى تحسينه ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة إلى اليوم كان من نتائج هذه الحرب العوان ارتقاء الانسان مادياً للدرجة التي نرى بها لندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات مما لو حدث به الشرق لرمى محدثه بالجنون لعدم تصوره ما يقول هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبياً عظيماً لأنه لا يتأتى إلا بأعمال القوة العقلية وإجهادها وهذه القوة هي كما لا يخفى محتد كل الفضائل البشرية فانظر بأبيك إلى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح كيف بعث الانسان إلى الارتقاء وحسن الحال وجذبه رغم أنفه من طور البهيمية إلى طور الانسانية ؟ هل بعد هذا يصح أن نذم تلك المصائب وتبرم منها بعد

علمنا بأنها السائق الوحيد للفكرة الانسانية إلى البحث عن أسباب السعادة والرفاهية ؟ أما يجب علينا بعد هذا أن لا نجعل جزءنا من المصائب الطبيعية غشاء كشيئاً بيننا وبين استنباط الطرق إلى تخفيف وطأتها واستئصالها مرة واحدة ؟ فإذا كان في مكنة الفكرة البشرية أن تخرج آلة تجتذب بها الصواعق صاغرة وتلقى بها إلى أسفل سافلين ، فكيف لا يكون في مكنتها أن تبتكر طريقة بسيطة تخفف من ويلات دودة القطن التي يقف فلاحنا أمامها صاغراً يضرب صدره ويمزق نفسه ؟ رزقت الأمم الأوروبية حسن التبصر في جوائح الطبيعة فتراهم يتربصون لآحداثها بالمرصاد فكلما ألم بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لزالته أو تقليل خطارته ولا ينامون عن مشروعاتهم حتى يحققوه علماً منهم بأن في الفكرة الانسانية من الأساليب ما يضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم : هذا هو سبب من أسباب رقيهم المدهش الذي قاموا يسيطرون به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضع . فما لنا عن التذكرة معرضون ؟

أما العامل النفساني على الرقي الانساني فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيراً ولا يمتاز عن سابقه الا في كونه معنوياً . يشعر كل انسان في نفسه بأن وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه وأمال تتنازعه وآمال تتقاسمه مما لا يستطيع أماته ولا أبطال تأثيره عليه مهما بذل من المجهودات في ذلك السبيل . ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى يستطيع وزنها بقسطاس الاعتدال . ولا هاتيك الأمال مما تقبل التحديد حتى يرى الانسان بعينه النقطة التي هو مسوق اليها قسراً ولا تلك الآمال مما تخضع لأحكام القنوع حتى يتسنى له أن يوقفها عند نقطة مخصوصة . بل قضى الحكيم المختار أن تنطلق هذه العوامل المعنوية من كل قيد وأن تتجاوز كل حد وأن تشذ عن كل رابطة حتى صارت بما أودعت من روح الحركة

والتأثير كأنها تيارات متعاكسة تتصادم في فؤاد الانسان تصادماً يهوله
مراه ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها ومستقرها

انظر إلى ذلك الرجل الرث الهية الخلق السربال الجالس في ظل تلك
الدوحة ، أتظن أن سكونه الظاهري دليل على سكونه الباطني ، أو أن حالته
من الفاقة نهنت وجدانه عن تلك المطاعم السرية والمعامع الضميرية ؟ كلا .
إن حاله ذلك لم يقلل فيه تلك الانفعالات النفسية عما هي عليه عند أكبر ملك
جالس على أريكة لامة متمدنة

وجد هذا الانسان الضعيف على سطح هذه الكرة الأرضية وهو كما هو
شيء غير محدود في جسم محدود أو بحر لا نهاية لسواحله في فؤاد لا يزيد
عن الكف مقاساً فلم يستطع أن يطمئن إلى شيء من الأشياء المحدودة أو
يركن إلى كائن من الكائنات المشهودة إلا ريثما يتحقق أن ذلك الشيء ليس
بما يصلح أن يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب ذلك البحر الزاخر الذي
يسمع دوى أمواجه داخل فؤاده . نعم بذل الانسان وسعه من القدم في
التجسس على ما لا تأنس نفسه إلا به فأم كل طريق وقاوم كل تيار وسلك
كل سهل واقتحم كل حزن ونزل كل غور وصعد كل نجد وتوغل كل رعن
وهو بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعاً فيرده أو عقبة فتصدده فيزيد
خبرة بماهية السائق له والمسوق إليه فيصلح من خطأه ويقلل من غلطه فيترفع
قليلاً عما كان عليه في سابق بحثه فتقابلة الجوائح وتصادمه البوائق فيعلم أن
غرضه أسمى من ذلك . وهكذا حصل حتى تم له أن ينتقل من دور التسفل
في البحث إلى دور الاستعلاء فيه . فصار الآن كلما طالبت النفس برغبتها ألقى
بنظره إلى السماء بعد أن كان في السابق يلقى به إلى الأرض .

هذا العامل النفسي له فضل عظيم في حفظ الانسان من الخضوع
لمؤثرات البهيمية فيه فلم يقع في الوحشية التي لو اتصف بها لكان كائناً يتبرأ

منه ويؤنف أن ينتسب الى نوعه . وهذا العامل نفسه هو الباعث الى تأليف علوم الأخلاق والبحث في الآلهيات والنفسيات والمحرص على الجد في علوم الحكمة مما كان ولم يزل له أثر عظيم في تحسين حالة النوع الانساني أما العامل النوعي فهو نتيجة العامل السابق ولم نسمه عاملاً قائماً بذاته إلا لما أنتجه من الانقلابات الشديدة في النوع البشرى وفي الفرد الواحد قلنا أكثر من مرة أن الانسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق أمياله وشهواته عن القيود ومجاوز انفعالاته لكل ما يتصور من الحدود بخلاف الحيوانات فانها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابتة وقواعد عامة لاتتعداها ولن تستطيع ذلك . إذا علمت هذا فقل لي بعيشك ما كان يستحيل إليه حال الانسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لو لم يصادف في حياته أموراً تجبره رغم أنفه الى تحديد نقطة الاعتدال فيها وإيقاف أمياله عند تخوم التوسط في سائر مراميها ؟ أما ترى معنا أنه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوباً مع تيار واحد يحسب أنه سيوصله إلى غاية يقف عندها ويتملى بسعادته فيها فيخونه الحسبان فيظل مقنوداً إلى حيث يلاقى حتفه على أسوأ حالة ؟

إذا اعتقد رجل أن السعادة في الغنى وأنواعه غير محدودة في وجدانه ونهاياته غير مرتسمة في جنانه ، فماذا يكون حاله في هذا السبيل المميت للعواطف البشرية إذا لم يصادف أمامه مانعاً يصدده ليقف قليلاً فيرجع الى نفسه رجعة يفهم بها أنه لو عاش ألف عام دائماً على سلوك سبيل الثروة لما وصل الى غاية مما يؤمله وأنه لو صار قارون زمانه مالا فلن يكون أسعد أهله حالاً

نعم ان الذي خلق الانسان وأطلق مداركه من كل قيد خلق بازائها موانع تصدها لتزعها عن الافراط كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه

عن التفريط . فأما تلك البواعث الدافعة له إلى الامام فقد درسناها في الفصلين السابقين . وأما الموانع التي تعترضه لتجبره إلى الاعتدال في مطلبه فأهمها مقاومة بني نوعه ومزاحمتهم له في كل رغائبه : هذه المزاحمة تنقسم إلى قسمين عظيمين . أولهما مزاحمة أفراد المجتمع التي يعد الرجل فرداً منها . والثانية مزاحمة الجمعيات بعضها لبعض في التسابق إلى ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة . هذان القسمان من التزاحم المعبر عنهما بتنازع البقاء هما السببان الرئيسيان اللذان علما الانسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة جداً هي نظام حياة الأمم ومساكها :

أولها عدم الغفلة عن الحق لأن الأهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له إسقاطاً كلياً .

ثانيها معرفة قواعد العدل لأن الانسان بالجوار يجر إليه أضغان أمثاله فقسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه .

ثالثها احترام النوع الانساني بأكمله . هذه الثلاثة أمور كما هي قوام أعمال الأفراد هي أيضاً نظام الأمم العظيمة المتمتعة بنعمة الاستقلال . فان الأمة المستقلة إذا أهملت مجارة جاراتها سبقتها إلى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلماً منهم بل تعتبر هي الظالمة الأثيمة باهمالها استعمال خصائصها المودعة فيها . ومن يتأمل في حالة الجمعيات البشرية المختلفة يرى العجب العجيب من آيات المسابقة . هذا من حيثية الأمر الأول . وأما الأمر الثاني وهو العدل فان من أقل خصائصه في الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جرياً مع الأهواء . ولا يخفى ما ينبني على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الأفراد والتضافر فيما بينهم على السعي إلى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة المجتمع . ومن يرد برهاناً محسوساً على حسن نتائج العدل فليتدبر في

أحوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليغنى عن كثير من التطويل
وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الانساني فانها ما انبثت في أمة
حية إلا وقللت من حدة الأسلحة الموجهة إليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت
من نصال مجاوريها الطامعين فيها وأبطلت من عرامهم وشرتهم لدرجة تطمئن
بها على نفسها أكثر من اطمئنانها لقوتها وعظمتها
لنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول : إن هذه الثلاثة العوامل الرئيسية
(الطبيعة ونفس الانسان وبنو نوعه) مع النواميس الكثيرة النانوية التي
تستلزمها هي بواعث الرقي الانساني قدرها الخالق جل شأنه تقدير الأجل أن
ترفع الانسان رغما عنه من درجة الوحشية إلى درجة المدنية أو السعادة
الانسانية وهي عينها بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف
من السنين إلى هذا الحين .

الدين والعلم

إن المناقشة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد فان
التاريخ يدلنا على أنه من منذ أزمان بعيدة جدا كانت المشاحنات والمشاغبات
قائمة بين الطرفين في أغلب الأمم . إلا أن العصور المتقدمة كانت تمتاز عن
عصرنا الحاضر في قساوة تلك المشاكل وصرامتها . فان كثيرا من فلاسفة
الأمم حكم عليهم بالأعدام بالسم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاموا
بنيرون عقول مواطنيهم من الأوهام التي تحط بشأن العقل وتطفئ من نوره .
أما في عصرنا الحاضر فان العلم على ما قاله المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية
فرنسا وأكبر علماء الكيمياء بين قدينا حريته المطلقة وصار لا يخشى سيطرة
الدين عليه . لقد صدق المسيو (برتلو) فانا نتلو مؤلفات القوم العلمية
فلا نرى إلا طعنا على الأديان وتنديدا بها يدلنا على أن القوم قد مرقوا

منها مروق السهم من الرمية ولم يكفهم ذلك ، بل أخذوا ينذرونها بالانمحاء العاجل لعدم انطباقها على النواميس المرقية للإنسانية ولا على القواعد العلمية .

ألف المسيو (بنجامن كونستان) كتابا سماه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التي أنهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى إلا بحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية وبالاختصار كل الحريات الضرورية ثم قال : « بهذه الطريقة تنتقى الأديان عن أدرانها ولكننا لا نخال أن ذلك يتحقق مطلقا لا اعتقادنا أنها لن تترك شيئا من أسسها . ولكن بما أن هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الديانات وزوالها » . نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم المشهور يحكم على جميع الديانات بدون استثناء بالانمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعاً لأنه لو درس الاسلام الأول ولو درساً سطحياً لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرهما . ولكننا في هذه المقالة سنقتصر على ايراد أشد المطاعن على الأديان وجهات الضعف فيها نقلاً عن أشهر علماء أوربا ليقف قارنا على اتجاه الأفكار الأوربية العلمية ولتحقق بعد أن نورد عليه أسس الاسلام أنه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الأرواح قلنا أن المسيو (كونستان) قد أندر جميع الأديان بالزوال والآن نقول أنه علل ذلك تعليلاً فلسفياً فقال : « إن كل قاعدة مهما كانت نافعة في الحال فلا بد أن تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقي في الاستقبال لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلاً عديم الحراك يأبى على العقل البشرى اتباعه في مكتشفاته التي ترقيه كل يوم وتطهره . إذا حصل ذلك انفصل في الحال الاحساس الديني عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها

من القواعد التي لا تجرحه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها .
 درس القوم الانسان درساً مدققاً واهتدوا إلى الطريق الذي يجب أن
 يسلكه لكي يصل إلى سعادته وعلّموا أنه لن يستطيع أن يؤدي الوظيفة المهمة
 التي أعدته لها العناية الالهية إلا باستعمال جميع خصائصه ومواهبه الممنوعة
 له وعدم قتل عاطفة من عواطفه . ثم نظروا نظرة إلى الماضي فرأوا أن
 الذي أخر العالم الأنساني عن الوصول إلى ماهيه له من مقاوم الرفعة هو
 الانصياع إلى أوامر رجال ادعوا أنهم قادة الأديان ورؤسائها فأنحوا
 عليهم طعناً وتنديداً ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الانسان واهباطه ومن
 ذلك ما قالوا (فويرباش) متهمك ! « ان الفضيلة الدينية وعلى الخصوص
 الفضيلة العليا أي فضيلة الاولياء هي أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية وأن
 تطرح سائر الاعمال والأشياء الدنيوية كأنها هلو باطل لأجل أن تستطيع
 بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر أن تدبّل في انتظار الجنة . وأن تقتل
 جميع عواطفك وأميالك الطبيعية وتميت نفسك وتذلّها . »

رأى علماء أوربا — والدليل الحسى بين أيديهم — أن رقى الانسان
 منوط برقى العلم ونموه ، وأن نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده
 وتحرره من أصفاده وعدم سيطرة شيء من الأشياء على الابحاث العلمية
 حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتائج المنابذة بين رجال الأديان
 ورجال العلوم في الأزمنة الماضية قال المسيو (بلوك) : « أن رقى القوة
 الفكرية وحسن الحكم على الأشياء يتعلق بنمو العلم - وقد تحصلنا على هذه
 النتيجة بترقية معلوماتنا التي هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من
 جهة ومن جهة أخرى باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق في الأشياء . »

لاعتقد العلماء الاوربيين بأن حرية العقل والعلم هي مناط كل السعادات
 المادية والمعنوية تراهم لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخ الضغط عليهما إلا بمزيد

الانفعال والتغيظ من الماضي متشفين من الذين يؤملون أن يعيدوا الكرة .
 ولنترجم قطعة صغيرة من أقوال (لاروس) المشهور ليرى القارىء مقدار
 التحمس الذى يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق قال : « إن قلنا
 إن الاحسان يقتضى اعتقاد الأشياء المعقولة يقولون . كلا . كلا . ثم يسعون
 فى تدليل هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر
 وبين العدل والظلم . حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة
 لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة وتظن الأبيض أسود وتعد
 الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا . نطيع من ؟ هل نطيع العقل ؟ هل
 الواجبات الطبيعية ؟ هل الاحساسات القلبية ؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة
 للإنسانية ، والتي تنتج من تلك القواعد نفسها ؟ كلا . ولكن أطع وأنت
 أعمى إلى الذى يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أهلك أو بعمل
 مقتلة عامة فانه ليس لك لاروح ولا ضمير ، إنما أنت ميت فى الله »

إلى هذا الحد وأكثر وصلت مناوأة علماء أوروبا للأديان الموجودة
 ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة أنهم تركوا التدين بالمرّة وزعموا أنهم
 استغنوا بعلمهم عن الاخبار والخضوع لخالقهم وخالق كل شيء ؟ كلا .
 أنهم ليقررون مع أصحاب الأديان ويزيدون عليهم فى استدلالهم بالابحاث
 العلمية إن الاحساس الدينى هو غريزة النفس البشرية لا تقل فى الوضوح
 والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء . قال (جيزلر) الفيلسوف الألمانى
 فى كتابه تاريخ الاعتقادات : « الدين مخلص مثل خلود الاحساس الذى ينتجه
 ولكن علوم الدين هى مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقى
 على قدر الرقى العقلى وذلك مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم
 التشريع . فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهدب
 على الدوام . »

وقال المسيو (ارنست رينان) في كتابه المسمى تاريخ الأديان :
 « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعهده من ملاذ
 الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم
 والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبداً لآباد
 حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى
 المضايق الدنيئة للحياة الطينية . »

ملخص الأمر أن علماء أوروبا الذين يركن اليهم مجمعون على أنه من
 المحال أى تزول من النفس غريزة التدين كما يستحيل أن تزول منها غريزة
 الحب أو البغض ، ولكنهم قرروا مع ذلك — وكتبهم شاهدة عليهم — أن
 لا دين من الأديان الموجودة يصلح لأن يكون الدين العام للجمعية البشرية
 المستقبلية ولا الحاضرة ، لماذا ؟ قالوا لعدم انطباق اساساتها على قواعد العلم
 ولمعاكسة نصوصها لبداثة العقل ولتقييدها الأمور تقييداً ينافى ما عليه
 المدارك البشرية من الحرية والانطلاق . ولذلك قال أحد فلاسفة أوروبا
 أن الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشى إذا كانت قواعده مطلقة عن
 الحدود وأصوله مجردة عن القيود كما هو استعداد الانسان للكمال المطلق
 وأهليته للرقى الذى لا يحده وصف الواصف ، وتقولون أنه لو كان دين من
 الأديان الحاضرة يستطيع أن يؤلف بين العاطفة الدينية المغروسة فى جبلة
 الانسان وبين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية إلى حيث
 هدتنا اليه الابحاث العلمية من السعادة المرجوة للزم الاعتراف بضرورته
 اعترافاً قطعياً . قال (لاروس) بعد أن ندد بنظمات الأديان ما يأتى :
 « ليست هى الديانة التى تحت الرجل على أداء واجباته بل هو الفكر العام
 وقوة الطباع والعواطف التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك
 الفكر العام الذى هو نفسه يزد تهاباً ولطفاً كلما تقدمت المدنية والمعلومات

فان عرفت الديانة بأنها مجموع أفكار صالحة لربط جميع أفراد البشر إلى جمعية واحدة متمتعة بالفوائد المادية كما هي متوفرة في القوة العقلية فقد حق لك اذن أن تقول ان الدين ضرورى للنوع الانسانى « انتهى

. هذا ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشرى مهما ترقى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين: هو أن طائفة كبيرة من علماء أوروبا قامت بتأليف ديانة سمّتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا إليها من القواعد والأصول إلا ما دل على حقيقته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان . وسنأتى فى الكلام على أسس الاسلام على أهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون بأعينهم أن دينهم لم يترك مجالاً لجائل ولا مقالاً لقائل : « أفغير دين الله يغنون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » .

ما هو الاسلام؟

أى بليغ يتصدى للكلام على الاسلام ولا يشكو من العجز التام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامى حقه من التبيين؟ وأى حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين؟ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله .

أى مادة غريزة وقرينة سامية وعالمية شاملة يجب أن يتصف بها الانسان لأجل أن يمكنه فهم وتفهم هذه النواميس الأزلية الأبدية التى تدور عليها الأدوار وتمربها القرون والأعصار وهى هى لما كانت نواميس يزيد بها القدم شباباً ويلبسها الزمان من الجدة جلباباً وتودعها الأجيال للأجيال ولا يدركها إلا الذين أنار الله بصرهم بنور العرفان

وأطلع في سماء أفكارهم شمس البيان : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . »

انا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا إن الاسلام هو سنام الكمال الأعلى الذى خلق الانسان وأعد للرقى إليه والذى لأجله وضعت فيه غريزته الدأب والبحث عليه . بل الاسلام هو أمنية النفس البشرية التى فطرت لتنشدها وتحسسها كأعظم غاية لها وأسمى نقطة لكمالها . فهى لا تفتأ تتطور فى كل الأطوار وتدور مع كل الأدوار بحثاً عن تلك الضالة العزيزة المنال والتى فى وجودها راحة لها من البلبال ومقنع لها من كل الآمال والأمال

نعم الاسلام هو الغاية الكمالية التى مات دون نيلها الحكماء وفقى قبل اكتناهاها العلماء . الاسلام هو القانون الأقوم والناموس الأعظم الذى من الله به على هذا النوع الضعيف ليقيم أود حالته ويغنى به سعادته ويجعله الركن الذى يعتمد عليه ويهرع فى الشدائد إليه . من به على هذا النوع خاتمة للأديان وتاجا على هامة الزمان وفى الحين الذى تم فيه نمو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وترينا طريق الهدى بالحجة لى لا يكون للانسان بعد أن بلغ رشده تعلقة فى رفضه ولا قوة فى دحضه

الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرن أوضح من الضياء وأسهل جولاناً فى العقل من الشعاع فى الماء . فلا قاعدة دلت عليها التجارب . ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران إلا وهى صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية حتى يخيل للرأى أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية فى سبيل رفعة شأن الانسانية

لا يقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية :
« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف
بربك أنه على كل شيء شهيد . »

بناء على ما قدمنا فلن يمكن صدم تيار الاسلام بأى وسيلة كانت ، لأنه
لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الانسانية والترقيات النفسية وبين محو
النصوص العلمية العملية ورد الناس الى الحالة الأولية . وهذا أمر لن يقدر
عليه مجموع الأنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : « يريدون أن
يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره . »

فلنشرع الآن بعون الله تعالى فى إثبات أن كل ما نقرأه من قواعد
المدنية العصرية ليست بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من
شمس أو قطرة من بحر وأسهل سبيل يوصلنا إلى هذا الغرض هو أن نتكلم
على أسس المدنية الحالية ثم نثبت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة
واضحة جلية فنقول :

ما هو الدين ؟

إن لفظة دين قديمة جدا كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية
سواء حاضرها وباديها وحشيها ومتمدنها ولكنهم لم يدركوا معناها على
الوجه الحقيقى الذى جاءت به الشرائع الالهية والذى ينطبق على رحمة
الخالق وعنايته . ومن يتدبر التاريخ ير الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارا
كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشرى فى
فهم المعقولات .

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مجموع احتفالات عمومية تضجى
فيها الحيوانات أو أسرى الحروب إرضاء لمعبوداتهم وتسكيناً لغضبهم . ثم

لما ترقى المدارك الانسانية ونمت فيها الغريزة العقلية بطرو العلوم والفنون
أخذ معنى الدين ينجلي شيئاً فشيئاً ويقرب رويداً رويداً من المعنى المراد لله
والذى جاءت الآيات تأمر الناس بفهمه كذلك

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للاسلام يجب علينا .
أولاً أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة بعد أن فحسوا العلوم
فحصاً وأوسعوا الكون بحثاً عن نواميسه وتنقيراً عن قوانينه لنجعل هذا
من بعض الأدلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم في سبيل
فهم الحقائق هي تقرب ظاهر الى الاسلام فنقول : إن علماء أوروبا بعد أن
دخلوا في كل دور يمكن أن يدخله الانسان المعرض لكل أصناف الفتن
العلمية (ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للأن ير العجب) عادوا
الآن حيث الهدو شامل وبدر العلوم كامل فاعترفوا عن بينة بأن لهذا
الكون خالقاً قادراً حكماً متصفاً بكل صفات الكمال ومنزهاً عن أقل ما يشعر
بالنقص . وأنه جل سلطانه وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من
ينظر إليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجاً محسوساً وأن
يتعلم منها أموراً يغنى الجرى عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد
والتعاليم التي كانت تلقى على الناس فيحنون رؤسهم خضوعاً لها ولكن على
غير فهم لحكمتها ونتائجها . ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن
الخالق جل شأنه يتعالى علواً كبيراً عن الاحتياج لكان من صنع يده بل
هو غنى بذاته عن كل ما عده . ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام
بمخلوقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته وأقل نظرة في الوجود
تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية :

أنظر إلى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها تر آثار
هذه المرحمة الكبرى تتجلى فلانسان تجلياً يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك

الخالق العظيم . فانه جل سلطانه لم يترك كائناً من الكائنات إلا ووهب له ما يقيم له أورد حياته ويحفظ بقاءه وما يدفع عنه البوائق والجوائح إلا ما يستلزمه نظام الكون ويكون في حصوله أثر مرحمة أسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود . ثم إن الهاً هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة وفائدة عظيمة لذات الشخص وبني نوعه وسائر أجزاء الطبيعة . لأن مجرد التدبر في جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو يريد افسادها وملاشاتها بل خلقها وأراد اصلاحها وبقائها ومما يدل على ذلك إيداعه فيها القابلية للترقى والتدرج لدرجة حددت في سابق علمه . ولما كان الانسان لا يفترق في النسبة إلى الله عن سائر الكائنات الأخرى بل يزيد عليها في كونه نهاية الابداع وغاية الاختراع فيكون بالأولى خاضعاً لنا موسى الرقي والتدرج وقابلاً له أكثر من سواه

هذا هو الواقع فان من يتأمل في مبلغ الرقي الذي حصله الإنسان من أول نشأته إلى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه إلى نقطة لم يصل اليها الفكر البشرى للآن . ثم قالوا وبما أن أفعال الله مجردة عن البحث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة في الكون كله وملائمة للأموال والاحساسات المغروسة في جبهة النوع الإنساني . فاستناداً على هذه البدائة العلمية التي لا يصح الامتراء فيها بني طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم الطبيعية واليك ما قاله في هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (جول سيمون) قال : « إنا نؤدى في أثناء هذه الحياة الواجب الذي رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعند ما ينتهى بقاؤنا فهو إما أن يثيبنا وإما أن يعاقبنا » ثم ذكر الأسباب التي تقتضى الاتابة والعقوبة فقال : « أما الأمر الذي يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الانسان

لقانونه الخاص وعمله للخير . أما قانون الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه . ثم هي محبة وخدمة اخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ماهى الطريقة التى يعبد بها الانسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والأخلاص هى نفس العبادة ونفس الصلاة ، والأخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى . هذه هى الديانة الطبيعية . وهذه هى العبادة الطبيعية . كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شئ ولا يغيره شئ . خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتكفى المظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . فأما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوءاً بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان ، وأن تكون لنا إرادة ثابتة فى أداء الواجب وخدمة إرادة الله تعالى بعمل الخير والبر « اهـ »

وهنا نستدرك فنقول أن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقاً كما يؤخذ ذلك من كلام (جول سيمون) فى غير هذا الموضع . إلا أنهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أديّة تذكر . فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لأحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها لا أغراضاً قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية . قال (كانت) الفيلسوف الطائر الصيت : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت أغراضاً لا وسائل . وهى يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تعتبر إلا وسيلة لا يقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية . »

أما نحن فنلخص من كل هذه الأقاويل أربعة أمور مهمة هى مذهب علماء أوروبا فى الدين وهى : (أولاً) الاعتقاد بأن الله غنى عنا وعن أعمالنا وإن ما نعمله من الخير لا نتيجة له إلا منفعتنا الخاصة . (ثانياً) أن

الله تعالى رحيم بالإنسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة إلا لفائدة نفسه .
 (ثالثاً) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم
 الطبيعة البشرية لا أن تعارضها وتسعى في ملاقاتها . (رابعاً) العبادة
 الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضاً
 مطلوبة لذاتها

نقول ان هذه الأربعة الأمور التي لم يبلغها العقل البشري إلا بعد أن
 شابت ناصية الكرة الأرضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها
 عجباً ويميلون طرباً ليست هي إلا شعاعاً من الديانة الإسلامية وقطرة من
 بحرها الزاخر . ونحن لاجل زيادة الاقناع نأتى هنا على النصوص الشريفة
 التي تنطبق على هذه الأمور الأربعة مرتبة على حسبها فنقول : (أولاً) قال
 تعالى : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه . ان الله لغني عن العالمين » (ثانياً)
 قال الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال تعالى :
 « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليظهركم وليتم
 نعمته عليكم ولعلكم تشكرون . » (ثالثاً) قال الله تعالى : « لا يكلف الله
 نفساً إلا وسعها » وقال تعالى : « ولو أنا كتبنا عليكم أن تقتلوا أنفسكم أو
 اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » وقال تعالى : « يريد الله أن
 يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (رابعاً) قال عليه الصلاة والسلام :
 « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » وقال
 عليه الصلاة والسلام : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش »
 هذه هي عقيدتنا في فهم الدين . وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام
 الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق . ولما كانت مطاعن
 علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه اليها غالباً إلا من هذه الوجهة الرئيسية
 التي يبنى عليها سائر قواعد الدين فقد حق لنا أن ننادى بأعلى صوتنا أن

الاسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشائن وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن .

هذه الأربعة القواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركاناً تنبى عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الإنسان إلى النقطة الكمالية التي أعد هذا النوع لبلوغها . ولما كان العلم هو المخطط اجماعاً بتحسين تلك القواعد المرقية للإنسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية في الجرى على سنتها رضا الخالق والقيام بطاعته

أما المرويات القديمة . الأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمته من قواعد الدين فقد صدقوا عنها وهجروها هجراً كلياً . قال (كانت) : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى إلا على قوانين أغنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » كأن (كانت) يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

الناموس الأعظم للمدنية

ان من يتدبر في تفاصيل تاريخ الأمم من يوم تكونها الى الآن لا يرى فيها إلا أهوالاً تشيب الولدان وترعد فرائص الإنسان ! يرى حروباً دموية وفتناً اجتماعية ، ومصائب أسرية ، ومفاسد أخلاقية ! يرى الأطماع والشهوات البهيمية لابسة لباس النفاق والوحشية . تسفك الدماء ، وتيتم الأبناء ، وتهدم كل بناء ! يرى رجالاً رفعتهم الصدفة الوقية إلى مقاوم الشرف الوهمية جعلوا بمن دونهم عبيداً يمتصون دماءهم ويبتزون ثراءهم لاطفاء جمرة شرهم

واشباع بطن نهمتهم ! اللهم إلا بعض مستشفيات من السعادة كانت تشرق
في بعض الأمم ثم تختفي ليحل محلها الشقاء والكمد

هكذا ترى تاريخ الانسان كله مملوء بالاحن والحن مفعما بالكدر
والحزن مما يكره اليك بنى نوعك ويحب اليك انهام نفسك، ولكنك لو
علوت قليلا عن مشار هذه القلاقل والزلازل ونظرت إلى النوع البشرى من
وجهة أخرى لرأيت بعينك أن هناك ناموسا ثابتا يبعث الانسان من خلال
هذه المضانك الاجتماعية والارتباكات العمومية إلى التقدم نحو الامام رغماً
عما يساوره في جميع جهاته من هذه النوائب المصمية . ثم لو علوت عن
مركزك هذا إلى أسمي منه لتحققت أن تلك الارتباكات كلها هي نواميس
ثانوية تابعة لذلك الناموس الذى شاهدته أولاً وان تلك الارتباكات والمضانك
هى أفاعيلها وآثارها تنفعل فى العالم لى يرتج فى بعضه ارتجاجاً يفصل
عنه خبث الاخلاق البهيمية ودرن النزعات الوهمية . هذا أمر لا مشاحة
فيه خصوصاً فى عصرنا الحاضر . ويمكنك أن تهتدى اليه بقليل من الاستقراء
فانك لو فحست كل نازلة مهمة أمت بالعالم فى عصر من عصور التاريخ
لرأيت أنها جلبت معها فائدة عظيمة لو وزنت مع المصيبة التى سبقتها لرجحت
عليها رجحاناً يقلل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رغماً

نحن فى هذا الكتاب الوجيز لا نستطيع أن ندرس وقائع النواميس
الاجتماعية التى يتأثر أفاعيلها على النوع الانسانى خرج من ظلم الجهالة
والوحشية إلى باحة النور والمدنية . كلا . فهذه أمور تعوزنا لكثير من
البحث والتدقيق يخرجنا عن نيتنا الأولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم
شاملاً لأطراف موضوعنا . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نلم بسر هذا التدافع
الاجتماعى إماماً يسهل علينا بحثنا وينير لنا المسائل الاجتماعية الكبرى بطريقة
ترينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا لتكون حجة التطبيق أكثر إقناعاً فنقول :

إن أول ضرورة شعر بها الإنسان بعد مقومات حياته الشخصية هي ضرورة الاجتماع على طائفة من بني نوعه . فكنت تراه من جهة ذاته على تمام الحرية لا يقيد به شيء من الأشياء . ومن جهة أخرى ضعيفاً عاجزاً لدرجة تلزمه أن يضحي بعضاً من هذه الحرية في سبيل إقامة أود حياته هرباً من فناء عاجل . لهذا أجمع علماء العمران على أن الإنسان مطبوع على الاجتماع رغم أنفه لأنه من مقومات حياته التي لا يمكنه أن يستغنى عنها كما لا يمكنه أن يستغنى عن المأوى والملجأ

بين هذه الحرية المطلقة التي يشعر بها الإنسان في نفسه وبين إحتياجه لأن ينضم إلى جمعية من بني نوعه قامت كل الفتن التي يحدثنا بها التاريخ وترويه لنا السير كما بنى عليها كل ما شاهدته وتشاهده من التفاعل في أجزاء النوع البشري جرياً وراء الغاية الممتناة . وعلى هذا فحوادث التاريخ كله في الأمم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التي تليق بمقام النوع الانساني ، وعلى تحديد السلطة التي تستلزمها حالة الاجتماع ولم يزل النوع الانساني الآن هدفاً للتدافع الهائل بين أجزائه طلباً للاهتمام إلى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين . إلا أن هذين القرنين الأخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل الدماء الغزيرة التي سمح بها محبوا الحرية في أوروبا في القرن الفارط مما لم يسبق له مثيل في عصر من العصور السابقة . قال علماء العمران : وهذه الحرية التي نالتها الأمم الأوروبية في هذا القرن الأخير هي سبب كل الرقي الذي نرى آثاره الآن على ربوع أوروبا .

ما هي تلك الحرية التي جاهدت أوروبا لنيلها جهاد الأبطال وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال ؟ هل هي بعيدة عنا بعد السماء من الأرض أو بعد اجتهد أوروبا من خمول الشرق ؟ كلا . هي بين أيدينا ولكننا غافلون عنها كغفلة الغنى الأبله عما بين يديه من الكنوز التي لو صادفت مالكا

كفؤا لساد بها على غيره ولا أطلق الألسنة بالثناء على خيره . نعم هي بين
أيدينا ولو شئنا لعملنا بها وجرينا على سنتها ونحن آمنون مطمئنون لا نتكلف
في سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج ، بل هي من محفوظاتنا عن ظهر
قلب ولا نتكلف إلا فهمها على حقيقتها ببذل قليل من التدبر . لو فعلنا ذلك
حصلنا الغرب في قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك إلا أن يندهش من
سرعة رقينا كما اندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة
العرب من الوحشية إلى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة
ما هي تلك الحرية التي يقول عنها المسيو (د . فيو) : « الحرية هي أفضل
سعادات الدنيا » والتي يقول عنها (باشيا) : « الحرية هي أصل كل الرقي
الانساني » والتي يترنم بحسنها (فيكتور هوغو) ويقول : « يمكن أن يقال
ان الحرية هي الهواء الذي يجب أن تستنشقه النفس الانسانية » هل هذه
الحرية هي الانفراط السكلي من كل قيد والانخلاع المطلق من كل رابط .
كلا . فتلك حرية الحيوانات التي لا نحسدكم عليها : بل الحرية التي يتوق اليها
فلاسفة الأمم هي الحرية المعتدلة التي تسمح للانسان باستعمال جميع خصائصه
بدون أن يخشى مسيطراً عليه إلا إذا تعدى حدوده المحددة له بوساطة الشريعة
العادلة ، وكان تعديه ذلك مضراً ببعض أعضاء الجمعية التي هو فرد منها
هذه هي الحرية التي يتلمسها عقلاء الأمم من يوم أن تسنموا هامة هذه
الكرة الأرضية وهامهم لم يزالوا للآن في جهادهم الأول ولو كانت أشكاله
تغيرت عما كانت عليه أيام كانت القنا والقواضب هي صاحبة القول
الفصل والسكمة العليا . ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها لأجل أن نطبقها على
قواعد الديانة الاسلامية يجب علينا أن نتكلم قليلا عن جهاد النوع الانساني
وراءها من منذ بدء الخليقة لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من أولها
إلى آخرها . ولنستدل على القواعد الأساسية التي قامت عليها حرية الأمم
المتمدية فنقول :

جهاد الانسان لنيل الحرية

الانسان حر بطبعه ولا يحتاج إلى مرشد يرشده إلى الحرية لأنها سبيل
من العواطف الشديدة التأثير عليه اللهم الا اذا توصل الى تعكير
وجدانه بالخزعات المطفئة لنور البصيرة كما حصل في كثير من الأمم
ولكن لما كانت الحرية المطلقة أى حرية الحيوانات تبطل عمل كثير من
الخصائص المودعة في الانسان والتي لا تتم إلا بالاجتماع رضع الانسان لأن
يضحى قليلا من تلك الحرية في سبيل مما رسته تلك الخصائص . من هنا نشأت
السلطة مع ما استلزمته من المقتضيات التي أخرجت تلك السلطة عن حدودها
في كثير من الاحوال . ذلك أنه لما كان من ضمن آميال الانسان المودعة في
جبلته حب التسلط والعلو على سواه وجدت بعض النفوس مساعداً إلى تحقيق
أمانها من التسلط المطلق ومجازا إلى متابعة هواها من التعالى الافراطى على
الغير وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنة .

ولما كانت وسائل التسلط لا تنجح إلا إذا واجهت الانسان من أشد
عواطفه تسلطاً عليه وجد محبو القهر والجبروت ان أنجع تلك الطرق هي
التأثير على الانسان من طريق الدين وكان الجرى على هذه الطريقة سبباً في
تحريف أكثر الأديان وإخراجها عن نصوصها الأصلية طمعاً في امتلاك
أزمة القلوب والسيطرة على العقول . فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها
العقل طلباً للتخلص من أوهامه القاتلة فيبتكرون له من أنواع التخرصات
الدينية ما يقف أمامه ولو حيناً من الزمان دهشاً مذعوراً ، حتى اذا صدم
ما يراه أمامه وأخذ يتحرك يميناً أو يسره أتوا اليه في الحال بما يثبط من
تلك الحركة أو يمنعها من الانتشار : وهكذا دام الحال قروناً كثيرة جداً في

خلالها كانت كلمة أولئك المسيطرين هي الكلمة العليا وأمرهم هو الأمر النافذ حتى طراً على العالم من تأثير نواميس الرقي ما يفكهم نوعاً ما من رتبة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين فنشأت سلطتان سلطة دينية وأخرى سياسية فصل بينهما من التدافع والتجالد ما لا تكفي المجلدات لتبيين أهواله حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية في هذين القرنين إلى التخلص من نير السلطة الدينية كما افكت نفسها أيضاً من غلو السلطة السياسية فقرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية بعد ما شابته ناصية الغبراء وسترته مشيبتها بالدماء فأخذ علماءؤها يؤلفون الأسفار الضخام ترمياً بتلك النعم الجزيلة وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الأديان بما لا نستطيع اثباته هنا وتغالوا فأنذروا سائرهما بالزوال ولم يعلموا أن كل ما نالوه بعد التي والتيا ليس هو إلا تقرباً إلى الإسلام الذي أشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا في ظلم الجهالة الحالكة .

جاء الإسلام في وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما دولة الفرس ودولة الرومان . أما الأولى فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخذة في زعزعة بنيانها وتقويض جدرانها . وأما الثانية فكانت لم تنزل على جانب عظيم من عظمتها الأولى وكانت لم تبرح تزلزل الأمم بسطوتها وتدوخ البلاد بقوتها . وكان فيها شطر عظيم من مدينتها السابقة أي مدينتها التي يقول عنها (لاروس) في دائرة معارفه ما يأتي : « ماذا كانت نظمات الرومان على وجه الاجمال ؟ كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين . أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لا يرى فيها إلا شرهاً مفرطاً للبال وحقداً على الأجنبي وضياعاً

لا حساس الشفقة الإنسانية . أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة
عن أعمال السوط والسيف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب
أو بالأسر وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر .»

نحن لم ننقل هذه المقولة في هذه المناسبة إلا لنرى القارىء مبلغ المدنية
في ذلك الوقت عند أعظم أمم الأرض ليتحقق أن كل ماسيراه من أساسات
الاسلام الطاهرة ليس بالأمر المستعار من أية أمة من الأمم الأخرى
كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين . ولن نكتفى بهذا ، بل سنثبت ذلك من
أقوال أساطين علماء أوروبا أنفسهم .

قلنا أن الأمم المتمدينة نالت من الحرية في هذا العصر ما بنت عليه كل
رقبها العقلي والخالقي مما حدا بأكثر علمائها أن يدعوا أن تلك الحرية منافية
لنصوص الديانات كافة كما أسلفنا ذلك ، وبنوا على فكرتهم هذه وجوب
زوالها كلها في مستقبل قريب وحلول العلم محلها في قيادة الإنسان إلى سعادته .
أما نحن فسنبرهن بالأدلة الحسية على أن الاسلام فضلا عن كونه لا يعارض
تلك الحرية التي رفعت الغرب من وهدته فانه يحتوى على قسط منها لا تقارن
به حريات العالم على أنواعها إلا كما يقارن الخيال بالحقيقة .

إن حرية العالم المتمدن التي نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجلالة
لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها إلا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى
كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاثة بالنسبة لبناء فاخر . أما هذه الثلاث حريات
الأولية فهي : (أولا) حرية النفس . (ثانيا) حرية العقل . (ثالثا)
حرية العلم . ولنتكلم على كل منها بوجه الاجمال مع اثبات أنها بعض قواعد
الاسلام فنقول :

حرية النفس

إن أكبر وسيلة تذرع بها مذلولو النوع الانساني للسيطرة والقهر هي حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريدها من أهم خصائصها الفطرية وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص يوجهونها إلى حيث شاء هوامهم ووافق كبرياءهم . فكانت كلمة (اعتقد وأنت أعمى) كما قال (لاروس) هي القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الأمم ، وكانوا اذا آنسوا من أحد من الناس بارقة التحرك الى التفصي من وثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من الجمعية القدسية وجعلوه طعمة للنيران أو أذاقوه من العذاب ما يقشعر له جلد الحيوان .

انتحلوا لانفسهم حق الوصاية على النوع البشرى وكلفوا أنفسهم تربية صغاره فنقشوا في مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم إذا شبوا آلات صماء في أيديهم يستعملونها كيف شاؤوا وفي أى غرض أرادوا . غرسوا في أذهانهم أن السعادة والشقاوة الأبديتين معقودتان بارادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » فنشأ الناس طبقاً للقلب الذى صبههم فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم ناداهم مما انطبع في سرائرهم من تلك التعاليم مناد يقول لهم : « كلا إنه لا أنفس لكم ولا ضمائر . ما عليكم إلا أن تطيعوا طاعة عمياء ! » من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما بينى عليها من حرية المدارك المرية لأنواع الملكات فلم يسع الطبيعة البشرية إلا أن أقامت الحجة عليها فتغللت النيات ودويت الصدور وتشعبت الهواجس في النفوس وافغوعمت الأفتدة بالأضغان والأحن ووقعت الجمعيات في حيص بيص وكان الناس

فيها لقطع الخشب في الرجل تغلى على تنور يصعد لها وينزلها غليان الصدور واضطرابات الأمور فنشأت الثورات الدموية بفظائعها التي لا تنطبق على إحساس ولا تدخل تحت قياس - حتى كان ما كان مما يعلمه كل إنسان لديه قليل من علم العمران

في أثناء تلك الظلم الحالكة وقبل تلك القلاقل المزعجة كان خالق الإنسان موجهاً عنايته السامية إلى تربية الأمة العربية في وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد الحكمة العظمى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليجعل منها أمة تقيم الحجة على لسان الجبار الأعلى وتؤدب الطاغين بيد القهار الأقوى حتى إذا ثابت الأمم إلى السكون بعد أن تنال من المدنية ما قدر لها في العلم المصون وتاقت إلى فهم ما يدعيه المسلمون من أن دينهم هو الكنز المسكنون والسر الذي قامت به السموات والأرضون وجدوا أن كل ما وصلوا إليه بعد بذل المهج واقتحام الرهج ليس إلا صورة منعكسة من تلك التعاليم الإلهية ! « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »

فهل ننظر الآن فيما يقول الاسلام في حرية النفس لنثبت لقادة الحكمة ونصراء النوع الانساني . إن كل النظريات التي يفتخر بها علماء هذا القرن ما هي إلا صدى الصوت الذي رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زهاء أربعة عشر قرناً فنقول : جاء الاسلام واضعاً لأساس المساواة بقوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . » وقوله عليه الصلاة والسلام . « إن الله قد أذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم . »

فإنمحي بذلك كل فضل يمكن أن يدعى بأصالة المحتد أو بوفرة الغنى أو

بالانتساب إلى قبيلة إلى غير ذلك من دواعي الامتياز وبواعث الانحياز ،
وجعل التمايز بالمزايا والأعمال لا بالفخفة والأقوال فقال تعالى : « إن
أكرمكم عند الله أتقاكم . » وقرر أن التقوى ليست من الأمور التي يمكن
للإنسان أن يحكم عليها بمجرد النظر إلى أفعال الرجل في الطاعات واجتهاده
في أصناف العبادات فربما ذهب ذلك كله هباء منثوراً لعقيدة رسخت في فؤاد
فاعلها لا يطلع عليها غير الله تعالى . قال عز وجل : « لا يسخر قوم من قوم
عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . »
وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى
لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار
فيدخلها وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينه إلا ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . »

قرر الاسلام ان قبول الأعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى
فليس للعبد ان يحكم على تقوى يراها في غيره بالقبول أو الرد بل يجب
عليه أن يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى ولو بلغت تلك التقوى
بصاحبها إلى درجة أعلته عن سائر أصناف الخلق . قال عليه الصلاة والسلام
« دعوا المحدثين من أمتي (أي الذين تحدثهم الملائكة) لا تحكموا لهم
بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذي يقضى بينهم يوم القيامة . » وقال
عليه الصلاة والسلام : « ويل للمتألين من أمتي الذين يقولون هذا للجنة
وهذا للنار . »

لم يعين الاسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو
بهم أمام القانون الإلهي عن مرتبة أقل المسلمين مكانة وجاهاً ، بل فتح لكل
باب الفضل الرباني وقرر أن ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء يلجّه

من أراد الولوج بدون احتياج ولا عوز لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع في أشراك من يدعون الاشقاء والاسعاد أو ينتحلون لأنفسهم حقاً ليس لسائر الافراد . قال عليه الصلاة والسلام : « من قال أنا عالم فهو جاهل . » وقال عليه الصلاة والسلام : « أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه في غير مواضعه ورجل يدعى أنه أحق بهذا الأمر من غيره . »

أكد الاسلام لمتبعيه أنه لن يغنى عن المرء يوم الحساب غير عمله ولن ينجيه من غائلة العذاب غير مكتسبات نفسه فلا يجديه الانتساب إلى عظم أو الاعتناء إلى أب كريم . قال الله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى . » وقال جل شأنه : « فلا أنساب بينهم يومئذ و يتساءلون . » وقال خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم : « يا عباس ويا صفاء عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد إني لست أغنى عنكم من الله شيئاً . إن لي عملكم عملكم . » لهذا وردت الأوامر الالهية موجهة إلى سائر الأفراد السواء ومكلفة أصغر عضو من أعضاء الجمعية الانسانية بما كلفت به أكبر كبير فيها . قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته . »

هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين من ذلة الاسر لنفس بشرية أخرى وسمت بها عن التقيد بإشارة غيرها لعلها بأنها هي التي ستدان وحد عما جنت وتساءل إعماء كسبت وأنه لن تغنى عنها نفس مثلها مهما علت وسمت بمثل هذه الأساسات تتأسس روابط المؤاخاة وتتأكد عرى المساواة ولا يكون السواد الأعظم من الناس مقودين إلى طائفة قليلة منهم يسرون كيف يشاؤون ويوجهونهم إلى حيث يريدون . نعم بمثل هذه القواعد تسود المساواة . أتدرى ما نتائج المساواة ؟ المساواة هي مبدأ أولى لمعاد

الحقوق والواجبات وأعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الأفراد .
 لمساواة هي الفارق الأكبر بين العدالة الحقة وبين العدالة الوهمية التي تنخر
 عظام الأمم وتمتص دم حياتها . قال نابليون : « المساواة هي ينبوع كل
 عدالة سواء كانت بين الشعوب أو بين الأفراد » وقال الفيلسوف
 (كوندرسيه) : « المساواة الطبيعية لبني الانسان هي القاعدة الأولى لمعرفة
 بحقوقهم وهي أساس كل الأخلاق الحميدة »

ونحن لا نود أن نختم مقالنا هذا حتى نثبت أن المساواة التي تتمتع بها
 الشعوب المتمدينة الآن ليست بقديمة العهد بل هي نبت الثورات الدموية
 التي حصلت في أواخر القرن الماضي . قال الفيلسوف (فرنك) : « إن
 المساواة المدنية التي تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة في
 الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجاً ونحن أما يحق لنا أن نتلوا قوله تعالى :
 « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . »

٢

حرية العقل

ان أكبر خصائص الانسان شأناً وأعظمها أثراً هي قوته العقلية . قلنا
 أن الانسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعاً على عمل ما يقيم أود حياته بل
 خلق مجرداً عن كل علم بما يستلزمه أمر بقاءه . الا أنه منح في مقابل تلك
 الجهالة القوة العقلية التي تكبر وتنمو بزيادة المعلومات فتغني الانسان
 عن كل سوق طبيعي وترفعه تدريجاً من الوحشية المظلمة إلى المدنية النيرة .
 ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الأخرى
 لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حيناً ما من تأدية وظيفتها
 على حسب قانونها المرسوم لها من القدم
 لم يتربص مذلول النوع الانساني لمواهب الانسان أكثر من تربصهم

لهذه الموهبة الكبرى لعلمهم أنها السلاح الحاد الذي لو جرد من غمده لم تقف أمامه جيوش الاوهام ولا ظلمات الأحلام فشددوا النكير عليها تشديداً حرم الإنسانية من أعظم خصائصها حتى صرحوا بأن استعماله في فهم ما يقولون يفضي إلى الالحاد. فوقع الناس في ظلمة من الجهالة أفضت بهم إلى حالة من الوحشية يحدثنا التاريخ بها وهو خجل من نفسه ناظم على أمسه. كان هذا حال الأمم في الحين الذي كانت فيه أصول المدنية الحقبة وحرية العقل يملها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم. فبينما كان المسيطرون على الأمم يصيحون في وجوه رعاياهم قائلين: « اطفئوا نور العقل. اطمسوا عين البصيرة، فان الدين ينافي العقل » كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه: « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له » وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمقهوريهم: « تواصوا أيها الناس بترك العقل جانباً فانه يغضب ربكم عليكم ويحلب سخطه اليكم » كان صاحب المدنية الحقبة صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم » إلى آخر الحديث

بهذه القواعد الالهية نال العقل حريته وتخلص من وثاق كان يئن منه ويتعثر في أصفاده وصار هو المرشد الحقيقي للإنسان وهي الوظيفة التي خلقه لأجلها الملك الديان لما صار هو المميز الأكبر لأفراد النوع الإنساني في الأفضلية بعد أن كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية. قال عليه الصلاة والسلام: « لا يعجبكم اسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله »

ماذا تفيد الإنسانية عبادته الظاهرية وأفعاله العضوية بينما يكون هو يضعف عقله عرضة لكل أنواع الافراط والتفريط، يضع الأمور في غير

مواضعها ، ويزن الأشياء بغير ميزانها فان كلف بأداء وظيفة أساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلا والعدل ظلماً ؟ ألسنا نرى كثيراً ممن يدعون الإصلاح والتقوى صاروا جوائح أمهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم ؟ أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال : « إن الأحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر . وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفي من ربهم على قدر عقولهم »

هذا هو مقدار تشريف الديانة الإسلامية للقوة العقلية . ولكن أتدرى ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجميلة عند الشعوب المتمدينة بعد ما نالوها ببيع الأنفس رخيصة في سبيلها ؟ كانت نتيجته تمتعهم بكل ما تراه من عظمة مدنياتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم . كانت نتيجته اهتداهم إلى طرق السعادة الدنيوية ومناهج الرفاهة المادية مما نراه ونسمع به عنهم . قال لاروس : « إذا بحثنا بدون حيف ولا وهم عن سبب الرقي الذي حصل في العالم المادي والفكري والخالق من منذ طفولية الجمعيات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا تخاص العقل من الضغط عليه » ونحن لا نود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارئ أن تحرير هذه القوة العقلية ليس يبعد العهد عنا وأنه لم يحصل إلا بعد جهد جهيد وجلاد شديد . قال (لاروس) : « من منذ زمن الإصلاح الديني لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم . ولاجل الاعراض الكلي عن أساطير الماضي ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية في ترميم ماتهدم من أركان الجمعية وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها » أما نحن فنقول : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »

حرية العلم

نسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء إلى الهيئة الجسمية . فكما أن الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الأرضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقى بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية . لهذه العلة أخذ مدلولو النوع الانساني في التشنبر على العلم والتشديد به وبمحبته وحكموا أنه الرجس الذي لا يصح أن يحام حوله أو يقصد حوضه . قال لاروس في دائرة معارفه : « أما هم فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم » نعم انهم تصدوا العلم تصدياً منع الناس عن ذكر اسمه والعروج على رسمه . وأخذوا يحرفون فلسفة الأقدمين لتتطبق على أوها مهمم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل مشوه يفرق العقل من رؤيته ويأنف من روايته

زعموا أن لديهم العلم الذي لاجهل معه والكنز الذي لا يفتقر من جمعه فحكموا أن كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجاً عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زنديق فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يروع الجسور أو يزع الصبور فأماتوا بهذه الطريقة عددا عظيماً من الحكماء بتهمة أنهم يسعون في زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل الا أن أقامت الحجة بلسان النواميس الخيرية وكانت تلك الحجة الناطقة هي سيادة الجهالة والأضاليل ورواج أسواق الأوهام والأباطيل حتى تغلبت الأميال

البيمية على العواطف الانسانية وعدا الاقوياء على الضعفاء فسلبواهم كل
مزايا الحياة وحقوق الطبيعة ودام الهرج والمرج سائدين على أحوال
الانسانية حتى بلغ السيل الزبى ولم يبق في القوس منزع . فجاء دور الثورات
الداخلية والمقاتلات الدموية طلبا لتحرير العلم من ربقة الجهنمية وكان ما كان
عما يعلمه من ألم بتاريخ ذلك الزمان .

هكذا كان حال الأمم قاطبة بينما كانت الحقائق الالهية تنزل من
السموات العلى على سيد الملا صلى الله عليه وسلم وتملى عليه أصول المدنية
الحقيقية والعلم المطلق من قيود العبودية . جاءت الديانة الاسلامية فأكف
أصفاد العلم ، حالة أغلال المعارف ، مقرررة انه من الظلم الشائن والاعتساف
المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام : « من قال
ان للعلم غاية فقد بنحسه حقه ووضع في غير منزله التي وضعه الله بها حيث
يقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

صرح الاسلام عن لسان الحكيم العليم في قرآنه القويم بأن فهم حكمة
الخالق في كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى إلا بانارة الفكر بانوار
العلوم وتقويم النظر ببداية المعقولات فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها
للناس وما يعقلها إلا العالمون » ولم يكتف بهذا بل أنذر المتكاسلين عن طلب
العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم برين يؤديهم إلى سوء العذاب فقال
تعالى : « ولئن أتيتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك
يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . »

بمثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة
والمعارف الحققة وأراهم أن طلبها والسعى في اكتسابها هو من أعظم ما يعبد
به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل العباداة طلب العلم »

وقال عليه الصلاة والسلام : « نظر الرجل في العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة »

لم يحصر الاسلام العلم في بلد من البلدان ولا عند طائفة من بني الانسان بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأنى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام : « اطلب العلم ولو بالصين » وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقاداً أو مغاير له وجداناً ، بل يكفيه باعثاً لأخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الانسان ويزيل من جهالته . قال عليه الصلاة والسلام : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . »

أتل آى القرآن الحكيم بتدبر وروية تر آيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغضاء عن نواطق الحكم تر الجبار الأعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلاً لهم : « انظروا ماذا فى السموات والأرض . » ويبكت المقصرين فى النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . » وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الأكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . » هذا هو شأن حرية العلم فى الاسلام . فهل وصل الأولون والآخرون إلى إعلاء شأنه واكبار مقامه إلى أكثر مما رأيت فى هذه الآيات التى تبعث الجماد فضلاً عن الانسان ؟ وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهدة عن أبناء هذا العصر ؟ كلا . قال المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيمائيين : أن العلم لم يتوصل إلى نيل حريته إلا

من منذ مائتين وخمسين عاماً : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . »

الواجبات الشخصية والبيئية والاجتماعية

قد أتممنا الكلام بوجه الايجاز على الثلاثة الأنواع من الحرية التى انبنى عليها كل الرقى الذى حصل فى العالم المتمدن وأقمنا الأدلة الحسية على أن كل تلك القواعد الأساسية للمدينة ليست إلا شعاعاً من أنوار الديانة الاسلامية. ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هى نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الايجاز حتى نرى لكل من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، » فنقول والله المستعان :

الواجبات الشخصية

كل إنسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما هما الجسم والروح . وإنهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتيهما اتحاداً غريباً بطريقة بها يتأثر أحدهما إذا تأثر الآخر ولو كان نوعا التأثيرين والمؤثرين متباينين جداً . وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الانسانى إلى أن مناط السعادة المتمناة هى حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الاعتناء بكليهما ضربة لازب

قال لوك : « السعادة التى يمكن للانسان أن يتمتع بها فى هذه الدنيا تستلزم أمرين اثنين عقلاً صحيحاً وجسماً سليماً . هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الأخرى ويمكن أن يقال إن من توفرتا عنده لم يبق فى نفسه حاجة لغيرهما . ومن حرم من احدهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن يملكهما

معاً مهما كان متمتعاً بمزايا أخرى لأنهما السبب الأول للسعادة والشقاء .
فالذي لا يكون مالمكا لعقل سليم لا يهتدى عمره لطريق السعادة البين .
والذي لا يكون جسمه صحيحاً لا يستطيع أن يخطو في ذلك الطريق خطوات
مهمة . »

إذا تقرر هذا نقول ان الانسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب
روحية تستلزمها سعادته النفسية ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية .
أما المطالب النفسية فهي مجموع قواعد لا يقصد بها إلا الحصول على صحة
النفس البشرية وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التي خلقت لها لما أن المطالب
الجسمية هي مجموعة قواعد لا يراد بها إلا صحة الجثمان وتمكينه من تأدية
وظيفته المطلوبة منه في الحياة الدنيا . نقول ان إدراك أن السعادة الانسانية
المتمثلة هي إصلاح حالة النفس والجسم معاً وحفظ النسبة بين مطالبهما
صارت الآن من البدائة التي لا يمتري فيها عند علماء العالم أجمع وقد سبقهم
الاسلام إلى تقريرها أيام كان الناس يبحثون عن السعادة في سكنى الجبال
وبالزهادة السككية أو بالافراط في الملاذ البدنية واطراح كل مزية فكرية .
ولنتكلم عن ذلك ببعض تفصيل فنقول :

إن من يتدبر بعين البصيرة في أحوال الخلق يرى العجب العجيب في تباين
فطرهم وتخالف استعدادهم فيرى هذا معتدلاً وذاك مفرطاً وذلك مفرطاً
وبين هؤلاء درجات لا يحصيها إلا خالقها وكلهم متباينون في الأعمال
والاعتقادات متخالفون في المنسكات حتى لا يمكن التوفيق بين فؤادين كما
لا يمكن الجمع بين ضدين . كل ذلك مع وحدتهم في النوعية واشتراكهم في
الانسانية . لماذا ياترى هذا التخالف الشديد بين أفراد النوع الانساني ؟
أليس هذا دليلاً محسوساً على أن هناك أمراضاً وأعراضاً قد تعترى النفوس
البشرية فتشوه من صورها المعنوية كالأمراض والاعراض التي تنتاب

الأجسام قتشوه من صورها المادية ؟ ثم إذا رأيت أن لاهياً أقلع عن لهوه وغوياً ارتدع عن غيه بتأثير موعظة أو رهبة . أليس في هذا دليل واضح على أن أمراض النفوس قد تزايلها إذا صادفت علاجها الحقيقي ؟ نعم إن النفس تكون في مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب في كل قالب ، فان منحت مريباً حكماً في أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفساً حكيمة زكية . وإن منيت بمرب مهملاً أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفساً شريرة تورد صاحبها الموارد الشائنة وتوقفه المواقف المهينة . وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية قبولها للمرض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الأمراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية مباينة لأمثالها بالنسبة للجسم المادى .

الآن سهل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الأمراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها . فما هو السبيل إلى ذلك ؟ لا سبيل إليه إلا بأربعة أمور : (أولاً) تطهيرها من أدناس الأوهام . (ثانياً) تهذيبها بالمعلومات الصحيحة . (ثالثاً) تعويدها على مكارم السجايا . (رابعاً) تصحيح اعتقادها . ولنفرد لكل من هذه الأمور الأربعة فضلاً مخصوصاً فنقول :

تطهير النفس من الأوهام

قلنا في السابق أن المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة الجثمان . والآن نقول أن أول أمر يجب أن يعتنى به الإنسان لحفظ صحته الجسمية هي تطهيره دائماً من أضرار الأدناس التي لا تفتأ تعثره في أثناء تأدية وظائفه الحيوية وأنه لو أهمل ذلك التطهير أفضى به الأمر إلى طروء المرض على جسمه وانهاكه تدريجاً لقواه حتى ينتهى أمره بالموت .

إذا تقرر هذا نقول إن الأوهام الفاسدة والأباطيل الكاذبة هي بالنسبة إلى النفس مثل الأقدار بالنسبة إلى الجسم فيجب الاهتمام بإزالتها بالوسائل الفعالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها. فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى. وحرمانها من هذه المزايا يؤدي إلى حرمانها من لوازمها فتقع في أمراض يعبر عنها بمثل الجن والحقد والبغض وهي الأمراض التي يضحى فلاسفة الأخلاق كل أوقاتهم للسعى في إزالتها حتى أنك لتراهم يحذرون الكافة الوقوع في أشراك الخرافات كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الأراقم ومخالب الضراغم مبرهنين لهم أن كل الفساد الذي طرأ على العالم في القرون الخالية كان بسبب احنائهم رؤوسهم لكل ما يقال واتباعهم كل ما يرسم أمامهم بدون برهان ولا دليل

سبقهم الاسلام إلى تقرير هذه القواعد فحذر متبعيه من الوقوع في أوهام الأضاليل وأراهم أن أكثر ما يدعو الناس إليه يزرى بالعقل ويبعد عن سبيل الحق فقال تعالى: «وأن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» وقرر أن الانسان سيقف غداً بين يدي الله فيسأل عما حمل نفسه إعتقاده من الأباطيل التي لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان فقال تعالى: «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» ثم حكى لنا حال الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والأوهام وحكم عليهم بما هم آله من سوء المنقلب فقال تعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون»

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق أنه يجب تطهير النفس من الأوهام كما يجب تطهير الجسم من الأقدار والآن نقول أن التطهير المادى كما يحتاج إلى مطهر خال من الجراثيم المرضية وآت من المنابع الصحية كذلك تحتاج النفس إلى مطهر يطهرها من أوهامها ويخلصها من أقدار وساوسها وهذا المطهر الخالى من المكاريب هو العلم المثبت بالتجربة المستدل عليه بالمحسوسات . هذا أمر واضح لا يمتري فيه العقلاء وأول من سنه في العالم المتمدن هو (ديكارت) الفيلسوف الذى كان عائشاً في القرن السابع عشر ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه في تمحيص المسائل العلمية إلى الآن .

سبق الاسلام كافة البشر الى تقرير القواعد الحققة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة كما كان السابق الى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والاناث معاً فقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « أطلب العلم من المهد الى اللحد . » هذا ولم يترك الاسلام باباً تنساب منه الا باطيل إلى العلم إلا سده ولم يسم الشئ علماً إلا اذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة فقال تعالى : « ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون . »

صرح القرآن الكريم بأن كثيراً من الخلق تحسن لهم أهواؤهم فلبس الحقائق حاجة في أنفسهم وحذر من السقوط في مخاتلهم ووسمهم بأنهم المعتدون الذين يجب أن يلفظوا اللفظ النواة ويعاملوا بما هم أهله من الأقصاء . فقال تعالى : « وان كثيراً من الناس ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين » وقال تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم حكى لنا حال الذين يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم

فأنذرهم بسوء المصير وشر المنقلب وقرر بأن لن يغني عنهم قوهم انهم مقلدون
لسواهم فقال تعالى: «واذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب
وتقطعت بهم الأسباب». وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما
تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من
النار.»

يصيح الاسلام في الناس صيحة توقظ الراقدة وتبعث الصالح مبرهناتهم
على أن الحاجة إلى العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط ولكنها
تسرى على أحوال الحياة الدنيا أيضاً قائلاً لهم إن صلاح الشؤون الدنيوية
وقوام الأعمال الحيوية لا يتأتى إلا به. قال عليه الصلاة والسلام: «من أراد
الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.»
يرمي الاسلام المقصرين عن طلب العلم بأشد ما يرمى به مقصراً في
واجبه نائماً عن مطلبه. قال عليه الصلاة والسلام «الدنيا ملعونة ملعون
ما فيها إلا عالماً أو متعلماً.» وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه لا خير في
العيش إلا لعالم ناطق أو لسامع واع.»

ينذرنا الاسلام بأنه سيأتي زمان يروج فيه سوق الاحاد ويرمي الاسلام
بما ليس فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل إلى الدين
ليهدموا صروح الاسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الحيل الجدلية التي تدق
على غير الواقفين على حقيقة الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم: «ستكون
بعدي فتن يصبح الرجل مؤمناً ويمسك كافرأ إلا من أحياء الله بالعلم.»

الاسلام يصرح لنا بأن الجهل والاسلام ضدان لا يتفقان وأن التدرج
في فهم القرآن مرتبط بزيادة العرفان وأن الراضى بالجهالة يكون راضياً
باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه وفي هذا من
الخسارة ما لا يقدره الحاسون قال الله تعالى: «وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلا العالمون . » وقال عليه الصلاة والسلام : « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم . »

هذا هو مقدار تشريف الاسلام لمقام العلم والحث عليه وقد رأيت أنه أشد تأثيراً على النفس وأكثر تحريضاً لها من كل ما نسمعه من قادة المدنية ونصراء التنوير : « ومن أحسن من الله حديثاً . »

تأديب النفس بمكارم الخصال

يعلم كل إنسان أن للنفس أميالا تشعر بها وتتفعل لها ولا تستطيع الانفكاك عنها كما يوجد للجسم احتياجات يجب امتاعه بها لحفظ موازنته وعدم الاضرار بكيانه . فكما أن الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام باعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره . كذلك تشعر النفس بحاجتها إلى أشياء وهي وان لم تكن جوعاً ولا ظمأً ولا برداً ولا حراً إلا أنه لا فرق بينها وبين الجسم في الاحتياج إلى أخذ ما يقوم بحياتها منها .

نعم للنفس أميال ومطالب وهي وان كانت لا تحصى في صورها ولا تحصر في أشكالها إلا أنها دائرة على محور واحد ألا وهو ميلها الفطري إلى نيل كمال تشعر به في صميم فؤادها ولا تستطيع التخلف عنه إلا أن تموت بحسرة .

اهتم عقلاء العالم من القدم بتهديب أخلاق النوع البشرى ولهم في ذلك مذاهب يضيق الكلام عن إيرادها ولسنا نكلف أنفسنا إقامة الدليل على عدم صلاحيتها إلا باستلفات النظر إلى أحوال الأمم العظيمة ذات الشهرة التاريخية . نعم ان أقل نظرة في شؤونها واتجاه أميالها تدلنا دلالة صريحة على أن قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم في تربية الاحساسات وتهديب

الطباع وهو ناموس الاعتدال . بل نرى أن منهم من جعل محاسن الأخلاق قاصرة على أمته وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها . ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح في كثير من الأمم التي كان لها سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يستطيع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط في حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع أن تتابع السير إلى غرضها الكمال الذي فطرت مسوقة إلى تلسمه وتحسسه . ومنهم من أفرط في كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أميالها واحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها إلا لوقت محدود .

هذا الإفراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذي سبق ذكره فلم يسر على أفراد أمة إلا وأخل نظامها وقوض أركانها وجر إليها من الفتن الاجتماعية ما يطلب عليه من مطولات التواريخ . هذا الإفراط في ترويض النفوس يصادف غالباً في الأمم التي أساءت فهم دينها ولم تقف عند الحد الذي قرر في شريعتها الأصلية . نعم لا نشك أن من الأديان من جاء أمراً بالزهادة المطلقة والخروج الكلي عن دائرة الأشياء الأرضية ، ولكن غاب عن أهل هذه الأديان أن هذه الديانات لها زمن محدود ويستحيل أن يعمل بها بعد مضيه وانها لم يقصد منها إلا إحداث حادث في الوجود يراد منه إعداد النفوس لارتقاء درجة نهائية لا يمكن أن تتيسر إلا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه الدرجة الثانية التي ندعى انها غاية تما يمكن الوصول إليه في تحديد الشهوات والنزعات هي خطوة الاعتدال .

نعم الاعتدال هو الناموس الأعظم الذي ينبني عليه قوام كل شيء ويحفظ به كيان كل شيء . أتريد برهاناً على ذلك ؟ أنظر إلى جميع الكائنات السفلية

والعلوية من أول الذرة المادية البسيطة إلى أكبر نجم في قبة الفلك ترها كلها
 السنة ناطقة بأن الاعتدال مساكها وملاكها وأن به كمالها وانتظامها . نعم
 الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع أن تعطل كمال شيء من الأشياء
 إلا به كما لا يمكنك أن تعزو الاختلال في شيء إلا لفقدانه . لم يبق ريب
 الآن عند علماء الأرض كافة في أن الاعتدال هو القاعدة التي يجب أن يبنى
 عليها كل عمل وترد إلى حدودها كل حاجة سواء جسمية أو نفسية . ذكر لاروس
 أحوال طائفة من متعبدين زعموا أن نيل الدرجات الزلفي في الآخرة لا يتأتى
 لهم إلا بقتل جميع خصائصهم النفسية وحرمانها من كل ما تنوق إليه
 طبيعتهم بأنواع من الترويض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونسب إليهم من
 الفظائع والأئامور الوحشية ما لا يصدر إلا ممن مسهم ضرب من الجنون
 الشديد ثم قال : « هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يمتتوا تأثير الطبيعة
 عليهم صاروا في الحقيقة ضحايا شهواتهم التي تنهشهم : لأنهم بدلا عن
 تنظيم حالة نزعاتهم باعطائها مطالبها في حدودها المعتدلة أرادوا بجنونهم أن
 يستأصلوا شأقتها . »

كان هذا شأن سائر الأئام في الإفراط في شهوات النفوس وأميالها أو
 التفريط في كبح جماحها حتى اسفرت سماء الحق بنور الاسلام وانكشف
 عن محيا الفضيلة الحقة كل لثام فنهلت آي الله تعالى منددة بالغالبيين والمقصرين
 منذرة إياهم بسوء المنقلب في الدنيا ويوم الدين مقررة أصول الاعتدال على
 قسطاس مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم .

نظرت الى منازع الأنفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة
 منها بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض بارشادها الى ناموس
 الاعتدال وأرتها أن الزيف عنه إلى الإفراط أو التفريط يفضي بالانسان إلى

ما لا تحمد مغيبته ولا تسر عاقبته . علمتنا هذه الآي الكريمة ان الله تعالى لم
 يخلقنا من عالم العدم الى باحة الوجود ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التي تمت
 إحساسات الأنفس وتخرجها عن دائرة السكال الانساني بل خلقنا ووهبنا
 كل ما نحس به من العواطف لنبلغ به ما أعد لنا من الرقي النفسي بسيرنا
 على مقتضى الحكمة الصحيحة وأرتنا أن كل ما أمرنا به من أنواع العبادات
 الجسمية أو القلبية لا يقصد به الا تلك النتيجة . قال تعالى : « ما يريد الله
 لينجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »
 يصرح لنا الاسلام بأن الغلو في الدين ليس من الأمور التي يكلف الله
 تعالى بها عباده بل أنه يتنزه عن أن يحملهم فوق مقدور طاقتهم : « لا يكلف
 الله نفساً إلا وسعها . » بل كلما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذي أهلك
 الأمم وأبادهم هي من مخترعات أفكارهم . قال عليه الصلاة والسلام : « إياكم
 والغلو في الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين . » تصدى الاسلام
 لمن يظن أن التهاك في العبادة واضناء الجسم فيها مما يبرهن للخالق جل شأنه
 على شدة الاخلاص فقرعهم على ظن أفضى بهم إلى وصف الله تعالى بغير
 صفاته السكالية وأنذرهم بأن تهالكهم هذا فضلاً عن كونه ذاهباً سدى فانه
 يجر عليهم سخط الخالق وغضبه . قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يقبل
 رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال عرفة . »
 الاسلام دين السعادتين وناموس الحياتين . لم يقرر في أصوله الانقطاع
 الى التبتل : « من تبتل فليس منا » ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل
 الحيوية بالهرب الى رعان الجبال والانقطاع عن سائر الأعمال . كلا . كل ذلك
 مما ينافي الاسلام ويستلزم غضب الملك العلام . روى أن رجلاً أتى الجبل
 ليتعبد فيه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « لا تفعل أنت
 ولا أحد منكم ، لصبر أحدكم ساعة في بعض مواطن الاسلام خير له من عبادة لا

أحدكم وحده أربعين عاماً . « هذا شأن الاسلام في الاعتدال في الدين الذي هو مالك لأزمة النفوس وقائدها إلى نعيمها في الحياتين ولا يختلف عن هذا شأنه مع أميال النفس ومطالبها . فقد قررنا أنه لا يأمر بقتل عاطفة ولا بأمانة نزعة بل يسعى في جعلها معتدلة قوينة بلا إفراط ولا تفريط . فالسخاء مثلاً وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة في الاسلام إلا إذا روعي الاعتدال فيه وبدون ذلك يكون ذنباً يحاسب الانسان عليه . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً . » « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . »

ثم ما قولك في التواضع ؟ التواضع هو ذلك الخلق المحمود الذي يرفع صاحبه عفواً إلى مقام الشرف والمجد وهو من السجايا التي يحثنا الاسلام على التخلق بها . قال عليه الصلاة والسلام : « لو كان المتواضع في قاع بر لبعث الله اليه ريحاً ترفعه . » ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن تحذيرنا من الافراط فيه لدرجة تفضي بنا إلى المهانة والصغار وترمينا إلى حضيض المذلة والابتذال وينبها إلى التفرقة بين من من الناس يحسن لديه التواضع ومن منهم يليق الترفع لديه حتى يكون الرجل بمثابة منبها كما هو بمقاله واعظا . قال عليه الصلاة والسلام : « ومن لا يوجب لك لا توجب له ولا كرامة * لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل كمثل ما ترى له * إذا رأيت المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيت المتكبرين فتكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة . »

وهكذا ترى الاسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الأخلاق وتأثيرها على مراکزنا في الحياة الأخرى يرينا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة حتى لا يكون الانسان حلوأ فيؤكل ولا مرأ فيلفظ كما هو معنى حديث شريف

وهو الأمر الذى ينافى شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيراً .
 قل لى بأبيك ماذا يكون شأن الطغاة فى أمة أفرطت فى السجايا المحموده
 وأخرجتها عن حدودها المعتدلة وإلى أى نقطة تصل شره المعتدين إذا صادفوا
 عند كل جريمة عفوا وبأزاء كل رذيلة سماحاً ؟ أما تكون النتيجة تمادى الباغين
 فى بغيتهم وإخلاقهم بمسيبات الأمن والطمأنينة ؟ أما تكون النتيجة حرمانهم
 من التهذيب والأدب وهما الأمران اللذان لا يتمان إلا بالعقوبات الرادعة
 والأحكام الصادرة . قال عليه الصلاة والسلام : « إقامة حد من حدود الله فى
 الأرض خير من أن تمطروا أربعين يوماً . »

للحياة الاجتماعية شؤون يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درساً سطحياً
 وهى تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلدا على تحمل عواذها وفطنة على
 حل مشكلات دواعيها . بل هى الحرب العوان التى يصلها الانسان من
 يوم ميلاده إلى يوم نهاية حياته . حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسية
 وشبتها الضرورات الحيوية . حرب لا مناص منها لمن أراد الكمال وتوسم
 العلاء فى دار المآل . حرب أذن الله أن يشب لهيها ويتأجج سعيرها لتبعث
 النفوس إلى إظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها
 لكيلا يكون الانسان تائهاً عن أسرارها ضالا عن عجائب أحواله : « ونبلوكم
 بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون . »

هاهى العائلة : قل لى بأبيك كيف يكون حال الأدب فيها إذا كان أبوها
 مفرطاً فى مكارم الأخلاق افراطاً يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من
 أطفاله ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم ؟ أليس يؤول حالهم الى التماضى
 فى الغى ونشأتهم على عدم احترام القوى الوازنة التى سيصادفونها أمامهم
 يوم يكونون رجالاً عليهم تكاليف الحياة ؟ لا شك أن عائلة رزئت بأب مثل
 هذا يكون حالها الخلل شأنها الفشل ويكون ذلك الأب فى نظر شريعة

العدل مجزماً يجب تنبيهه الى خطة الاعتدال ، ان صح هذا في العائلة فهو في الجمعية أصح وأصرح .

جاء الاسلام فأنقذ النفوس الانسانية من شقاء التفريط في الأميال النفسية والافراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سنة الوجود وتناسب قوانين الحياة مما يسمح للنفس أن تنال حريتها الحققة فترتقى في معارج الكمال بانتظام وسلام : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . »

تصحيح الاعتقاد

قد تكلمنا في فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أضرار أوهاامها بالمظهر الملائم لها وهو العلم الصحيح واستكننها لها سر صحتها وهو قانون الاعتدال في أمتاعها بجميع أميالها ، وبقي علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول : انا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة متمتع وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ولكنهم كثير والضرر شديد والخيرة لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة كأن لهم في كل لذة ألماً وبازاء كل فرح ترحاً . يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا تزيلهم الا بزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه لأنه دواؤهم الوحيد .

ما سر هذا الأرق والضرر مع هذه الصحة الجسمية وملك الثروة المالية وهما الأمران اللذان عليهما (كما يقال) مدار السعادة الانسانية ؟ ما هذه الخيرة الوجدانية والوحشة الضميرية مع تهذبهم بأنواع العلم وهو كما يزعمون

الشافى للناس من نزعات الوسواس ؟ أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائقة لأمر ما أن غاب على الإنسان عليه فقد دله عليه أثره ؟ وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العيدان ولا مغازلة الغيد ، بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ولا الأكوام بجانبه إلا فناء ! ما هو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمانت وسكنت ، وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت ؟ هو لا شك صحة المعتقد وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس إلى شىء من أشياء هذه الأرض الحقيرة أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة ، بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكشيفة لتشرف على حضرة القدس المنيفة وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتبهات الجسمانية وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فهما غالط الإنسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه فان النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليتهدى الى وضوح الحجة . فان تبصر فى أمره واكتنه حقيقة سره وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب اليه رشاده ولو كان جسمه بين القنا والقنابل وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل الى ابلاغ هذه النفس الهائمة أمنيته وامتااعها بطلبتها من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . »

العقل فى النوع الانسانى خصيصة من أجل خصائصه ومنحة من أفضل منح الله عليه لو استعمل فيما وضع له واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسير الانسان غور هذا الوجود العظيم على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده ويستكنه

سير
أفع
وح
الا
رفع
مر
النبو
وفى
تبعاً
على
محكم
إليه
استد
عقيد
أنه
يكف
وقت
بخص
بهذه
العقل
غري
من

سير النواميس السائدة عليه فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائه عن اللهو كما يستدل به على علمه وتدييره ورحمته وحكمته استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الانسان أحوال الجمعيات البشرية فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعفها ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق فيما جاؤا به وفي الآثار التي تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والاحساسات وفي تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الانسان بين أحوال الماضي والحال فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبدانة على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها وباقية بقاء النوع الانساني .

قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويجب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سامة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الاعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتسنى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الانساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية وكان يكفيه في الايمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتاً ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتنعهم بخصائص تعجز عن استناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه . وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الانساني رشده فلا تجدى فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية ، فان حدث حادث من هذا القليل رموا فاعله بالتدليس أولاً ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا

يعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى
فان طائفة الاسبيريت الروحيين في أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة
الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات .
مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة ، نعم لا ننكر أن أعمال
هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولكنه
بدون شك يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .
وما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات
تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهوراً منهم
إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه للاعتقاد إلا النور
العقلي والدليل العلى . ومن أقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو (هنرى
برنجيه) في مجلة المجلات الصادرة في ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ . قال مامعناه :
« إن العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم
يستطيعا أن ينكرا الروح التي بعثت إليها . أما نحن الآن فلسنا بحاجة
إلى معجزة ما فان معجزتنا الوحيدة الخالدة هي هذا العالم العالى الذى لانهاية
له فانه أصلح فى إيقاظ احساسنا الدينى من كل المعجزات الماضية . » انتهى
لهذه الأسباب جاءت الشريعة الاسلامية تدعو إلى السبيل الحق ببدائة
العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات ، لعلم الله
سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية
مالا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . نعم جاء الاسلام يخاطب
العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة فلا يدعو إلى الاعتقاد بوجود إله حكيم
قادر إلا مع تنبيه العقول إلى الدليل الحسى على ذلك ولا ينفى عنه الشريك
ولا يثبت اليوم الآخر إلا بتعصيد ذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسة
علم الله أن كثيرا من ذوى الأهواء فى الأمم الطامعين فى الكبرياء والعظم

قد يحسن لهم الطمع أن يدسوا في الدين أشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها إلى حيث توعد إليهم شهواتهم فقرروا في دينه الأخير أن كل دعوة من هذا القليل يجب أن يطلب الدليل العلى عليها فانه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمثبط لعزائم أهل البطلان . قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون . » وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . »

أنهى الاسلام باللوم والتعذير على الذين ديدنهم تقليد آباءهم تقليداً أعمى والجمود على ما ورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فأذنهم بسوء المنقلب وشر العذاب فقال تعالى : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . »

قرر الاسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه إنما قلده غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب مادام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع . قال تعالى : « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد . » وقال تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . »

صرح لنا الاسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هي عماد الدين ومسالك الاعتقاد فمن فقدوها فقد جنى على نفسه جناية عظيمة وأوقعها في مصيبة كبيرة لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الأكبر . قال الله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . »

هذه هي قواعد الاعتقاد في دين الاسلام وهي مطابقة تمام المطابقة لما
أقر عليه جمهور فلاسفة أُمم الأرض في هذه القرون الأخيرة من أن كل قاعدة
لا يقررها البرهان يجب أن تسحب عليها ذيول النسيان فقل لي كيف يمكن
أن يتطرق الزيغ إلى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الاسلام بعد أن يسمع نداء
الحق في صميم وجدانه يزعه عن ورود الأباطيل ويردعه عن التعلق بالاضاليل
قائلاً له : « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسؤولاً . » ؟ بل كيف يتأتى لمسلم متعصب أن يجارى الهوى ويتبع
كل من ضل وغوى بعد أن ينتقش في جوانح فؤاده ما قاله الله تعالى في وصف
أهل التغفل الذين يقبلون الضلال ويحمدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفاً على
تصديق الخرافات وهو قوله تعالى : « ولقد ذأرنا لجهنم كثيراً من الجن
والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان
لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون . » اللهم
بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحققة وهبنا من لدنك ثباتاً على اتباع
نهجه القويم وارفع عن أفكارنا ما تكاثف علينا من صدأ الأوهام إنك
سميع مجيب : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان
الله وما أنا من المشركين . »

المطالب الجسمية

قد آتمنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا إلا الكلام على
المطالب الجسمية وهو القسم الذي باتحاده بالقسم الأول والتأمله به يتم
للإنسان الحصول على سعادته اللتين يسعى وراءهما من يوم خلق للآن فنقول :
تنحصر السعادة المادية في أمرين هما حفظ الصحة والاعتدال في التصرف
بمقومات الجثمان . فلتكلم على كل منها في فصل خاص :

حفظ الصحة

قدمنا في فصولنا السابقة أن صحة العقل وهو المميز الأول للانسان عن
الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق وأقل نظرة في أحوال الانسان
تقنعنا بصدق هذه النظرية : وقد أدرك فلاسفة العالم المتمدين هذا السر العظيم
فتراهم يهتمون جداً بأمر الصحة اهتماماً لا مزيد عليه ويقررون كثيراً من
القواعد المقومة للبدن والمحافظة لقواه ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية
للعقل والمنمية له في آن واحد وجعلوا أهميتها لا تنقص عن أهمية تعليم
أصول العلم في شيء . قرروا كل هذا بعد ما زعموا أن الأديان تسعى جهدها
في ملاشاة الصحة ولا تعد بالنعيم الأبدى إلا من لوى الكشح عن أمر جثمانه
وتهكموا على هذا ما شاءوا مما لا نرى لزوماً لاثباته هنا بل نقول سبق
الاسلام كافة البشر إلى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة
العقل بصحة الجسم وجعلها أسساً من أسس الايمان وحمل كافة متبعيه على
الاثمار بها والالتفات اليها كما أمرهم بالالتفات إلى غيرها من قواعده ونص
بأنها من أكبر المنح التي يهبها الله للعبد ولا يفضلها في علو المرتبة إلا دلة
التوحيد . قال عليه الصلاة والسلام : « سلوا الله العفو والعافية فان أحدكم
لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية . »

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة
وتقويم الجسم مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة
والسلام : « الظهور شطر الايمان » أحب الله إلى الله إجراء الخيل والرمي
روحوا القلوب ساعة فساعة . »

أما الامراض فان الاسلام يعتبرها عذاباً من الله تعالى يبعثه على المريض

جزاء على تعديه للنواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة . قال عليه الصلاة والسلام : « المرض سوط الله يؤدب به عباده . » فيجب على المسلم والحالة هذه إذا أصابه مرض — أى سوط عذاب الله تعالى — أن يسعى في الانابة إلى سبيل الاعتدال في شؤنه الحيوية ولا يتأتى له هذا إلا باستشارة طبيب حاذق عالم بأصول نواميس الصحة دارس لقواعد الطب . قال عليه الصلاة والسلام : « تداووا يا عباد الله فان الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء . » قلنا طبيب دارس لقواعد الطب لأن الاسلام يحذرنا من الوقوع في مخاتل الدجالين وينذرهم بالمسؤولية العظمى ، قال عليه الصلاة والسلام : « من تطب ولم يعلم منه طب فهو ضامن . » ثم إن عجزت الاطباء عن مداواة العلة بعد أن يبذل الانسان وسعه في العلاج فان الاسلام يبشر الصابر على بلائه بأحسن الأجور في الدار الآخرة . هذا وديننا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوة من الاعراض التي تؤخر الرجل عن نيل الدرجات العلا في الآخرة لأنها غالباً تكون نتيجة الافراط في أمور الحياة ومقدمات التكاسل عن أدا . واجبات الدين ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . »

الاسلام لا يبيح لأى مسلم أن يتهاون بأمر صحته لأى غرض كان حتى في عبادة ربه والاخبارات له : روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : فلا تفعل . صم وأفطر وقم ونم فان لجسديك عليك حقاً وإن لعينيك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها فان ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد على . قلت يا رسول الله إني أجد قوة . قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزدد . قلت وما كان

قال صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال نصف الدهر . وكان يقول بعد أن كبر
باليمنى قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم .

لا شك أن كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير
الغيرة عليها وهذا الغرض الذي يسعى فلاسفة هذا القرن أن ينقشوه في أذهان
العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الامراض وتخف آثار العدوى .

الاعتدال في مطالب الجثمان

يعلم كل انسان أن للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة
الاعتدال فيها . فالغذاء وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب ضربة قاضية
على الحياة إذا استعمل بافراط أو اذا لم تراعى فيه القواعد الصحية كجمع
المتعاسات من المواد الغذائية ولهذا فقد أجمع كل أطباء العالم على أن ملاك
الصحة الانسانية هو الاعتدال في الشهوات الجسمية . بهذه القاعدة الرئيسية
جاء الدين الاسلامي فلم يحرم علينا شيئاً من الطيبات قط . بل أباح لنا الأكل
والشرب من كل شيء صحيح ولكن بشرط عدم الاسراف قال تعالى : « قل
من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » « كلوا واشربوا
ولا تسرفوا . »

ليست الزهادة في الاسلام بالتأثم عن لذائذ المآكل ونضيح الفواكه
وحرمان النفس من كل ما تشتهي . كلا . فليست مقرراته مثل هذه الزهادة
التي قد تنافي الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية . كلا . قال الله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله
لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم
بِهِ مؤمنون . »

في هذه المناسبة نقول أن ديننا القويم كما لم يحرم التمتع بلذيد المال كل
كذلك لم يمنع التحلي بجميل الملابس . قال عليه الصلاة والسلام : « ما منع
أحدكم أن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته »
ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا في التجميل والتزين إذا لم يقصد به
ريبة بل قصد به ارضاء الخالق جل وعلا في اظهار نعمته والتحدث بكرامته .
قال عليه الصلاة والسلام : « من كان له شعر فليكرمه » أي يسرحه . وقال
عليه الصلاة والسلام : « ان الله يحب كل جيد الريح جيد الثياب » وجاء
رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة قال ما مالك ؟ قال من
كل المال قد آتاني الله تعالى . فقال : « ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ
نعمة أن ينظر الى أثرها عليه . »

الواجبات العائلية

للعائلة في الجمعيات المتمدينة شأن خطير ومقام كبير فانها بالنسبة للجمعية
الكبرى كالافراد بالنسبة للعائلات الصغرى فاذا صلحت الثانية صلحت
الأولى والعكس بالعكس ولذلك ترى فلاسفة الأمم خصوصاً في هذا القرن
يوجهون أكبر همهم الى اصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية اقامة أودها
بالطرق العلمية المثلى . أما كنه هذه السعادة العائلية فينحصر في أمرين رئيسيين
وهما اصلاحها أدبياً ومادياً . وهذان الأمران منوطان ولاشك برئيس العائلة
ومطلوبان منه كأ كبر واجب تقضى به شريعة المدنية الحقيقية . من هنا نلقى
على عاتق أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتهما على حسب ماتحكم به سنة
الحياة فنقول :

الواجب الأول

إصلاح حال الأسرة أدبياً

أداء هذا الواجب من الرجل يستلزم أمرين رئيسين أحدهما اعتباره امرأته شريكة له في الشؤون العائلية واعطاؤها حقها من التجارة والتكريم ثانيهما اعتبار نفسه قima على أطفال سيكونون غداً أرباب أسر مثله وأعضاء الجمعية لها مقام في الوجود تؤثر عليها تربية أفرادها ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وان هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها إلى عنان السماء وقد ينشأ فيها آخر يدهورها إلى حضيض الدل والشقاء . وإن مناط كل ذلك هو التربية في سن الطفولية على المبادئ القويمة أو السقيمة ، وأن الاب أحد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من أحد أفراد عائلته التي رباه في حالة ما اذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء ادارته في التربية والتهديب . بهذه الأمور جاءت شرعة المدنية الجديدة وعليها بنيت كل نظريات التربية العائلية .

نقول سبق الاسلام كافة العالمين إلى تقرير هذه المبادئ القويمة فقال من حيثية عدم اهانة النساء والحث على اكرامهن واحترامهن بلسان النبي عليه الصلاة والسلام : « ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم . » و « احموا النساء على أهوائهن . » وفي قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . » دليل جلي على أن للمرأة شطرا عظيما من تربية أطفالها وتهذيبهم .

وأما من جهة انطباق الاسلام على ما جاء في الأمر الثاني فيكفي فيها هذا الحديث الجامع : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » بهذا النص الصريح صار الائب مسؤولاً عن أعضاء عائلته فرداً فرداً ومفروضاً عليه

تعويدهم على مكارم الخلال وشرائع الخصال لكي لا يأخذ بجريرة الإهمال يوم يوجه إليه هذا المقال : « ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك » حديث قدسى

الواجب الثانى

إصلاح حال الأسرة مادياً

إن ما تكلمنا عليه من ضرورة إصلاح حالة الأسرة أدياً يتعلق كل التعلق باصلاحها مادياً وذلك لأن أول ضرورة يشعر بها الانسان هي ضرورة حفظ جثمانه من التلاشى فاذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثاً على السعى وراء شيء أدنى مطلقاً . وفى الواقع ماذا يكون أمر عائلة لا تجد من الغذاء الصحى ما يقيم سلامة أجسامها ويحفظ على أفرادها قواهم العقلية والبدنية ولا من المسكن ما يقيم عوادي الأمطار والأعصار ولا من الملبس ما يحفظهم من أعراض الجو المجتاحة ؟ أليس يؤول أمر عائلة مثل هذه إلى أخس دركات التوحش فتحسن الضرورات لأفرادها كثيراً من الدنايا النفسية والخصائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الأخلاقية ؟ ثم ماذا يفيد العائلة وجدانها غذاء جيداً ومسكناً وملبساً كافيين ولم يجد أبوها مالا كافياً ليقضى به ما يجب عليه من إصلاح حالة عقول أفرادها بارسالهم إلى المدارس وإيجاد المربين لهم فى كل ما تحتاج إليه الحياة المدنية ؟ أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحققة أن العائلة تحتاج إلى من يصرف عليها بسخاء وان قلة مال أبيها قد توقعها فى أسوأ حالات الشقاء ؟

نعم وبهذه القواعد الممدنية جاءت الشريعة الاسلامية السمحاء . قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله »

وقال عليه الصلاة والسلام « ما أنفق الرجل في بيته وأهله وولده وخدمه فهو له صدقة » وليس بعد هذا ترغيب في الصرف على العائلة .
ومما يدل على ما للأسرة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير في نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف « ديناراً أنفقته في سبيل الله وديناراً أنفقته في رقبة وديناراً تصدقت به على مسكين وديناراً أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك »

نعم إن الإسلام لا يأمرنا بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شيء وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب خلقي ويحرض النفوس يوماً ما إلى كسر قيود الدين بالمرّة كما حصل ذلك في كثير من الأمم بل إننا نرى الدين الإسلامي يأمرنا بالسعى في إصلاح حالة معيشتنا جاعلاً ذلك الإصلاح شرطاً منه ، قال عليه الصلاة والسلام « إن من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك »

ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيشته إذا لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها ؟ لاشك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل في الإسلام لنبطل حجة القائلين بأن الأديان تكره العمل للإنسان فنقول والله المستعان :

مقام العمل والجد في نظر الاسلام

إن أقل نظرة في حالة الجمعيات المختلفة التي تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدننا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الأمم كلها في مضمار الفوز بحاجيات السلطة والعلاء هي الأمة المركبة من أفراد ألفوا الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل . وعلى هذا فيجب أن يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة للمدينة لأفراد النوع البشرى والحافطة للأمم حياتها واستقلالها نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولأجله ينددون على الأديان زاعمين أنها تحجب الكسل للانسان وتقذف به إلى حضيض الهوان

نحن لا يهمننا في هذا الكتاب إلا تبرئ الاسلام من هذه التهمة الفاضحة وإثبات أنه من أقوى العوامل في الترغيب إلى الجد والعمل وأن قواعده من أشد القواعد تنفيرا عن الكسل

أجل الاسلام يرشدنا إلى الجد في العمل للحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا إلى الجد في العمل للحياة الأخرى . قال عليه الصلاة والسلام : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وقال عليه الصلاة والسلام : (أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً) في هذين الحديثين رد على الذين توهموا أن صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه ويستوجب سخطه عليهم فنبدوها بنذ النواة ومحضوا أنفسهم للتعبد والزهادة باضناء الأجسام وأنضاء العقول ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهي جاء وأن القائم فيها يعلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وأن الطبيعة البشرية لا تلبث أن تقيم الحججة على مهمل أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقاوتنسكهم إجراما . هذا دلنا عليه تاريخ الأقسام التي افطرت في كراهة الأشياء الدنيوية

و فرطت في حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث أن لعبت بها أيدي الغوائل الطبيعية فارتكست إلى أسوأ حالة في الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منهم رعباً

أما الديانة الاسلامية وهي ديانة آخر أدوار الانسانية فلم تقرر في مبادئها أمثال تلك العبادة التي كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الأمم الصخرية بل قررت أن كل عمل يكون مناسباً لسنن الحياة وملائماً للنواميس التي تعلى شأن العائلة البشرية وترفع آميال النفس عن حضيض البيمية يجب أن يعد عبادة خالصة لله تعالى إذا قصد به وجهه الكريم لا إشباع نهمة الشيطان الرجيم

ولما كان لسب المال لاقامة أود الفرد والعائلة والجمعية والنوع الانساني بأسره هو من الامور التي تساعد على الوصول الى الغاية التي حددها الله لهذا النوع قرر الاسلام أنه من أفضل ما عبده به الانسان ربه . قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الأعمال الكسب الحلال » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله . ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » ولا تحسب أن الاسلام يرغبنا فقط في التكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضاً ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذتنا على اهمال أمر لآزب . قال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »

أما المال وما أدراك ما المال فهو في نظر الاسلام من أكبر مقومات حياة الأمة ومن أعظم دعائم الارتقاء لها . قال عليه الصلاة والسلام : « سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه » هذا وقد كان بين أصحاب رسول الله من الأغنياء من يكفي ما لهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضى الله عنه . وهل بعد مدح النبي صلى الله

عليه وسلم للمال الصالح في قوله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، يقال إن دين الاسلام ينافي الاثراء خصوصاً في مثل هذا الزمان الذي أخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم ؟ نعم نحن في زمان يجب علينا فيه أن نظهر أوامر ديننا القويمة في الجد والكسب حتى تنشط الأنفس من عقال خمولها وتنمحي تلك الظنون الفاسدة التي يهمس بها بعض من ينتحلون لأنفسهم وظيفة التهذيب والتعليم . فان العامة صارت الآن لا تسمع من إرشاد الدين إلا ما ينفرهم عن العمل ويبعدهم عن التكسب ويحجب إليهم القنوع والتقشف وهو إرشاد لم تراع فيه الحكمة النبوية من مداواة القلوب بأوفق علاجاتها أما والعلم لو كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين لما وجد في الصحابة من يملك شروى نكير لأنهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الأنام صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فانا نرى الأمر بخلاف ذلك على خط مستقيم . وهاهي أوامر الله تعالى في كتابه الكريم حاثّة على الكسب . وهاهي السنة الشريفة داعية إليه بأكثر مما نرى في كتب مدنية هذا العصر . قال الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » * « فانتشروا في الأرض » وابتغوا من فضل الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس خيركم من اتقوا ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه » وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال جهاد » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه فظفروا إلى شاب قد ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا فانه إن كان يسعى على نفسه النجس ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله . وإن كان يسعى عن غيره

أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله . وإن كان يسعى تكاثراً وتفاخراً فهو في سبيل الشيطان » يظهر من هذا الحديث الشريف إن كسب المال تابع لنية الكاسب فإن قصد به الغرض الحق كان مأجوراً وإن قصد به دنيا الاميال وخسائس الأعمال كان موزوراً ولو كان وجه المكسب حلالاً . قال عليه الصلاة والسلام : « من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استغفاراً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر »

هذا هو القول الفصل في هذا البحث بقي علينا هنا أن نتكلم قليلاً على ما يستشهد به بعض المشبطين بقول ان الرزق مقسوم وان الكد قد لا يغني قليلاً . أما نحن فأول المعتقدين بذلك . ولكننا لا نجترئ على اكتناه ما استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب . فما يدريني إن كدى هذا قد يخفق لعلم الله السابق ومالى ولاثارة هذه الأفكار التى بسوء فهمي لها تصدنى عن الشغل والاجتهاد وتلفتني عن منهج الرشاد ؟ كلا . إن الشريعة الاسلامية جاءت بقوانين الحياة المشاهدة المحسوسة وفي تعاليمها ما يدل الانسان على ذلك دلالة بينة .

قرر الاسلام أن الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم في الجد فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر . والعكس بالعكس . وهذه هي القاعدة التى تبعث الناس إلى التسابق في ميدان هذه الحياة باطمئنان على نيل مكافأة التعب . قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته »

يصرح الاسلام بلسان فصيح ان الاقدام والهمة في كل أمرهما ملاك النجاح ومساك الفوز وان الخمول والطأة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة . قال عليه الصلاة والسلام : « التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم »

ينادى الاسلام متبعيه قائلاً إن للحياة قواعد ثابتة ونواميس معينة فمن عارضها عارض إرادة الله تعالى ومن وفق أعماله على نهجها نال بغيته وفاز بمطلبه وإن الرزق والكسب خاضعان لهذه النواميس المقررة فمن خالفها حرم ومن لائمها رزق . وإن من أهم نواميس الكسب التذكير للحاجة والجد فيها قال عليه الصلاة والسلام : « من جد وجد ولكل مجتهد نصيب . الصبحة تمنع الرزق » وقال عمر بن الخطاب وهو أحد من يجب الاقتداء بهم : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » ومع كل هذا فانا نستطيع أن نسكت كل معارض ونقحم كل مجادل في السعي على الكسب والجد وراء الأمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته »

هذا والاسلام يحب الى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا الى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياه هرباً من الفقر الذى يقول عنه سيد الأنام : « كاد الفقر أن يكون كفراً » وتحامياً من أن يكون الانسان عالة على غيره . نعم الاسلام يبعث ذويه الى السعي فى طلب قوام الحياة ولو باقتحام الأسفار ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الأوصاب قال عليه الصلاة والسلام : « سافروا تصحوا وتغنموا »

على هذه السنن البينة سار أصحاب سيد الأنام . قال الامام أحمد : « وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخلهم » هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين يرى مثالا لهمة واقدام وعزم يحق للنوع الانسانى أن يفتخر به حقيقة وأن يتوق للوصول الى بعضه . ماذا يرى ؟ يرى شردمة قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب وهى من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الأمم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضعفة ائتمارا بأمثال ما قدمنا من الآيات الكريمة والأحاديث

الشريفة ولم تزل واطعة إياها نصب عينيها حتى بلغت في مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان في مدة ثمانمائة عام . بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعاً لا كرهاً اذا قيست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية . طالع تاريخ القرن الأول من الاسلام تر بعينيك من عجائب الهمم ما لا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام مما لا تعد همم متمدني هذا العصر بجانبها الا كسلا وجبناً

اذا كان الأمر هكذا فأين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الاسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور حتى عن نيل ما كان شائعاً عند أطفال أسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال ؟

لم يكف الأمة الاسلامية ما هي فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة الى الاسلام زاعمة أن لها الأخرى ولغيرها الدنيا . كلا . إن للاسلام الدنيا والأخرى معاً : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وادار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » هذا حديث رب الاسلام : « ومن أصدق من الله حديثاً »

لا يحزن المسلمون على دينهم بأكثر مما فعلوا ولينظروا إليه نظر عقل وروية ليروا أن أكثرهم الآن لا يتبعون إلا أهواءهم وأفكارهم ولا يمتنعوا علماء المدنية من الالتفات إلى الاسلام بما يدسونه ظلماً إليه . وليعلموا أنه سيأتي يوم في مستقبل قريب جداً يظهر الاسلام في العالم برونق يشبه ما كان عليه في زمن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » انه كان وعده مفعولاً ،

الواجبات الاجتماعية

لا يخلو أى إنسان خصوصاً فى العصور المتمدينة من أن يكون : (أولاً)
عضواً فى جمعية يحكم بقانونها ومشاطراً لأعضائها الآخرين فى المعتقد واللغة
والمقتضيات الاجتماعية : (ثانياً) يكون مرتبطاً بعلائق الوطنية والمحكومية
مع قوم ينافونه فى المعتقدات والعادات : (ثالثاً) تكون جمعيته التى يكون
هو عضواً منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعية أخرى تنافىها فى سائر الحثيات
أو فى أكثرها : (رابعاً) تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى لاختلاف المسائل
الحوية بينهما . فالثلاث أحوال المتقدمة لا تخلوا منها أبداً جمعية من الجمعيات
الكبيرة الحية وقد ينضاف إليها الحال الأخير حيناً من الأحيان أو أحياناً
ثيرة على حسب أهميتها فى الوجود فانا نرى بأعيننا أن أكثر الأمم مدنية
وأهمية تجربها دواعى الاستعمار إلى مواصلة الحروب كل آن حرصاً على
مصالحها ولو مع قبائل صغيرة

مجرد النظر إلى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبعى لامناص
منه لأنه لسان حال كل أمة متمدينة وغير متمدينة معاصرة لنا أو بعيدة العهد
عنا . نقول الآن ان كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام
الأربعة واجبات تنيطرعاياها بملاحظتها أمام كل قسم منها بشرط أن تكون
تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحققة وموافقة لسنن هذا الوجود . وهذا
أمر لم يتوصل إلى اتمامه وتنفيذه على حسب نوااميس العدل الحق إلى هذه
الساعة إلا الدين الاسلامى واليك التفصيل والبرهان :

الاسلام يقسم العالم فى نظره فى أربعة أقسام كما قدمنا ويحدد بالنسبة لكل
قسم منها واجبات خاصة ويفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظتها فالناس
أمانة تنقسم : (أولاً) إلى مسلمين . (ثانياً) إلى ذميين وهم أهل الكتاب

من اليهود والنصارى الذين يكونون في ذمة الاسلام ومحكومين بقوانينه .
(ثالثاً) إلى معاهدين أو مسلمين لحكومة الاسلام . (رابعاً) إلى محاربين له .
فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل
قسم من هذه الأربعة الأقسام فنقول :

١

واجبات المسلمين فيما بينهم

يجب على المسلم بالنسبة لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلها تستلزم
الأخوة الحققة مثل المحبة والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسية . نعم
يجب على المسلم أن يعتبر سائر أعضاء الجمعية اخواناً له بصرف النظر عن
اختلاف شؤونهم وتباين أصولهم وألوانهم وأن لا يكون مناط التمايز بينهم
إلا المزايا الشخصية والمكتسبات الذاتية مع جعل هذه الميزة موكولاً
الحكم فيها الى جانب الخالق جل شأنه وعدم غنائها عن صاحبها أمام
القانون العادل .

أما التحاب بين المسلمين فهو شرط أولى من شرائط الايمان لقوله عليه
الصلاة والسلام : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا »
ونريد هنا أن ننبه أن هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب
الرياء والدهان والا صارت نفاقاً ان لم ينكشف سره اليوم في الغد . ولهذا
يجب السعى في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الايمان من
شوائب المكفريات حتى يتم له الحصول عليها ولن يتم له ذلك الا بالتبصر
في مبلغ علاقاته مع بني ملته وفي نتائج ركونه اليهم أو ابتعاده عنهم وفي عواقب

الاخلاص لهم أو مداراتهم بشرط أن يكون عالماً بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأى العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم : اذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقاً رغم أنفه الى إخلاص الحب لبني ملته كما يكون مسوقاً للالتجاء الى حصن شامخ هرباً من سيل جارف

هذه المحبة التي يدعو إليها الاسلام هي مناط كل سعادة اجتماعية وملاك كل مدنية حقيقية . أدرس أحوال الأمم المتمدنية وتأمل جيداً في دقائق أجزائها تر إن أكثر الأمم تماسكاً بين آحادها وتلاصقاً بين أفرادها هي أسبقهم إلى مضمار السعادة الحيوية وأولهم كلمة في الأحوال العمومية . وتر مثل هذه الأمة لا تعثر حتى تقوم ولا تهمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة في أمورها الخارجية ومهددة في منابعا الحيوية مما يقرب اليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلالها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناوئها من كل جانب فبددتهم بغير سلاح ورفعت في سر هربهم الاقداح . هذا من أسرار التماسك الذي هو نتيجة المحبة وليس ما نراه في الأمم اليوم إلا جزءاً يسيراً مما كان بين آبائنا الأول فرفعهم إلى أوج لم ينله للآن غيرهم وأوصلهم إلى مجد لم يتق إليه سواهم . تم لهم ذلك بعد التقاطع والتنابد بفضل الديانة الاسلامية والعمل بأوامرها السماوية . ولو أردنا أن ننقل هنا ما ورد في ضرورة التحاب بين المسلمين للزمانا صفحات كثيرة جداً فسكتنى بإيراد حديث شريف يدلنا على نقصان إسلام الذين يدعونه زورا حالة كونهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وملاذهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على إخوانهم وهو : « ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم »

ولنورد هنا بعض حقائق تاريخية تدلنا على مبلغ المحبة الاخوية التي كانت موجودة بين أفراد الجمعية الاسلامية الأولى ليتعظ بها أبناء هذا

العصر ولعلهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين أخوين شقيقين في هذا الزمان ، قال حذيفة العدوي : « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعى شئ من ماء وأنا أقول إن كان به رمل سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار الى أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمي الى أن أنطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر وقال آه فأشار هشام أنطلق به اليه فاذا هو قدماء فرجعت الى هشام فاذا هو قدماء فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات ، أنظر الى هذه الارواح الطاهرة التي يحذر بعضها على بعض حتى في ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفكر في فلذة كبدها . أنظر الى هذه النفوس الزكية التي تؤثر غيرها عليها في ساعة هو لها عظيم وألمها جسيم : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الأوصاف التي يفتخر بها هذا الانسان ويدعى استنادا عليها أنه أرفع من الحيوان . هل بعد هذا التماسك العجيب بين أفراد آبائنا الأول نستغرب سرعة امتلاكهم لأزمة هذه المعمورة مع قلة عددهم وعددهم ؟ هذه المحبة الحققة كانت شأن كل فرد من الأفراد سواء كان أميرا أو حقيرا أو غنياً أو فقيرا وما كان يصد ذا المقام السامي ما هو فيه من الرئاسة عن أداء واجبها بدون إخلال بوظيفته . اجتمع مرة قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل عليها (أى واليها) فقالوا : لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبدالله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً وأخرج منه ست بدر فقال احموها فحملوها فقال ابن عباس : « ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا لكي نعينه على تجهيزها فليس للدين من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا . »

بسرطان هذه المحبة الصحيحة في الأمة الإسلامية الأولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييداً لا يبلغ شأوه ولا يتحصل بغير الإسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلاً في فرصة أخرى .

هذا وقد ناط الدين الإسلامي بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعى في أعلاء كلمة الأمة وتأيد مركزها وقرر أن أعظم عبادة يحبها الله تعالى هي السعى وراء تحقيق السعادة العامة . قال عليه الصلاة والسلام من حديث : « إن صبراً حرككم ساعة في بعض مواطن الإسلام خير له من أن يعبد الله وحده أربعين عام » وقال عليه الصلاة والسلام : « صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل يوم خير من عبادة ستين سنة » من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره * من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين * من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بليجام من نار . « لاشك أن من يتأمل فيما سردناه هنا من الأحاديث الشريفة يرى بعينه أن مقصد الله جل وعلا من سن الأديان ليس هو التهاك في العبادة الجسمية أو التفاني في الزهادة المضنية بل قصده تهذيب الجماعات البشرية وترقيتها إلى أوج مدنيتهما بسيادة النواميس الممدنية على أفرادها . ألا ترى أنه يقول أن سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين وأن إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام ؟

اللهم ارزق المسلمين تبصراً في دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم حتى يستطيعوا أن يروا الإسلام بالعين التي يجب أن يرى بها فان من يفهم ما نقلناه هنا من الأخبار النبوية يتحقق أن المسلمين الآن بتقاطعهم وتناذبهم وجهلهم قد نبذوا دينهم ظهرياً واستوجبوا سخط الخالق باتباعهم لأهوائهم . نعم أن هذه الأحاديث تدلنا على أن التقاطع والتباغض ينافي الإسلام بالمرّة

بل هو مروق منه فان الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذا الدين للافراد بل أنزله لعمرم الجمعية فان أكثر أوامره لا يمكن العمل بها إلا بالالتزام والوثام لا بالتقاطع والانفصام . قال عليه الصلاة والسلام : « الاسلام إلى الجماعة أحوج من الجماعة إلى الاسلام . »

استطراد إلى الرق في الاسلام

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نرى القارىء اللبيب أحكام الديانة الاسلامية بالنسبة للارقاء فان في ذكر هذه المسألة فوائد جلية جداتجعلنا ندرك الفرق الهائل بين العدالة الالهية والعدالة البشرية فنقول : كلما رأيت من حقوق المسلم على المسلم ينطبق تماماً على الارقاء فهم بحكم الشرع اخوان مواليتهم للحديث الشريف : « اخوانكم حولكم جعلهم الله تحت أيديكم » الخ وبناء على هذا فليس لأعظم عظيم حق في التفاخر على عبد زنجى مسلم مهما كانت صفته .

وما يحمل الاستشهاد به في هذا الموضوع أن أباذر الغفارى رضى الله عنه كان يناقش عبداً بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فغضب منه وقال له : يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : « طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . » فوضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجى : « قم فطأ على خدى » وكان عبد الرحمن بن عوف إذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه البستهم وتشاكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم : وروى أن الامام علياً رضى الله تعالى عنه ذهب مرة إلى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمناً من الآخر فأعطى خادمه الأيمن

وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق : « أنت يا مولاي أحق بهذا الثوب »
فقال له أمير المؤمنين : « كلا إنك أولى به مني لأنك شاب وأما أنا فقد
هرمت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « إن أبا بكر سيدنا
وأعتق سيدنا » (يعنى بلالا الزنجى) . فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة
فى أفكار الصحابة وهم ملوك العرب فى الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر
إلى بلال الزنجى إلا من حيث خصائصه لا من حيث لونه ولا اصالته ! ولما
احتضر عمر ولم يرد تعيين خلف له سمع يقول : « لو كان سالم مولى أبى
حذيفة (أى رقيقه سابقاً) حياً ما جعلتها (أى الخلافة) شورى »
فهل سمعت أيها القارىء فى تاريخ البشر أن حب المساواة والأخاء
والحرية ساد فى أمة من أمم الأرض إلى هذه الدرجة ؟ إن هذه المساواة لم
يحلم بها فيلسوف للآن حتى فى آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور أحد من
متشرعى هذا القرن إن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين أكثر
الأمم مدنية وعدلاً فمن يلومنى الآن اذا قلت بأرفع صوت ان هذه المساواة
هى آخر ما يمكن حدوثه بين البشر وأن كل خطوة تخطوها الأمم المرتقية فى
سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو الا تقرباً من هذا الاسلامى ؟
ومن يكذبنى اذا قلت ان هذه المساواة الحققة لم تسطر للآن الا فى الكتب
الاسلامية : اللهم اهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم وألهمهم ذكرى مؤثر مجددهم
هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول اذا كان الاسلام كما ذكرت قرر
المساواة بين الأرقاء والأحرار الى هذه الدرجة وأظهر لهم من الشفقة
والرحمة ما لم يحصل مثله فى تاريخ البشر بأسره حتى قرر قتل الحر بالعبد
وعدم قتل العبد بالحر فلماذا لم يقرر أبطال الرق ومحوه ؟ فهل كان أبطال
الرق أشد صعوبة من أبطال عبادة الأوثان فنجيب إن الاسلام دين عام لم
يأت إلا لأجل أن يتبع ويسار بحسب تعاليمه . ولا يصح ذلك إلا إذا كانت

أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشرية التي فطر الناس عليها ومناسبة للبواعث
والأميال الانسانية التي لا مفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكله للنواميس
السائدة على الجمعية الآدمية رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها ليرتقى النوع
الانسانى تدريجاً من حالة البهيمية التي كان فيها إلى ذروة المدنية التي سيلاقيها.
هذه النواميس أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست كنت) و
(هجل) و (سبنسر) وغيرهم لأنهم رأوا النوع الانسانى متبعاً سلسلة في
الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغماً عن الفتن
التي تعتريه والثورات والمظالم التي تنشب فيه . بل قالوا إن كل هذه العقبات
التي تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ما هي إلا فواعل تسوق إلى الامام
وتخرج الانسان من الخلط الى النظام . فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما
ظهورت للسامع المجرد سامية عالية فلا تتصور أنه يمكن العمل بها في طبقات
الأمم إلا إذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشرى وتطوره وهيئات أن
يصل الحكماء إلى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو منقبين .
ان من يمعن نظره في تطورات الأنسان وتدرجه في الترقى الفكرى والمادى
ير بطريقتة محسوسة ان كل تطور دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل إلا
في الوقت الذي صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيئاً ومستعداً للدخول
فيه . أن نواميس الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض ممالك أوروبا ائتماراً
بقول فيلسوف أو اجابة لنصيحة حكيم . كلا . بل تقدم ذلك مناسبات
ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية إلى قبول شكل آخر غير الشكل الذي كانت
به . وهذا بحث لو اطلقنا له عنان القلم لادانا الى تطويل ليس هنا موضعه .
بناء على هذه القواعد الاساسية الثابتة جاءت الديانة الاسلامية مراعية
لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الانسان مراعاة تدهش المتبصر وتخير
المتدبر . فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية التي رقت المجتمعات حيناً من

الازمنة السابقة صارت الآن مما لا ينطبق أصلاً على الاحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الاسلامية حافظة لشيئها لم يعترها هرم ولم يعتورها سقم . نراها لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل استعداد وقابلية . ذلك لأنها هي نفسها تلك النواميس المرقية التي ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الانسان للآن .

نحن لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرق قاعدة من قواعد الاسلام يجب أن يوجد للآن . ولكننا نريد أن نعلل عدم إبطال الاسلام له في أول نشأته بالبرهان الحسى والدليل المشاهد ولا نرى لأجل هذا دليلاً أقوى من نقل قول العلامة لاروس في دائرة معارفه . قال : « إن الحروب أفادت النوع البشرى كثيراً حتى أن أسوأ نتيجة من نتائجها وهي الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومزية عظيمة . ولا يستغرب القارىء هذا الامر فان ترقى النوع البشرى قد يأتى أحياناً من طرق لا يظن مجيئه منها : فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الأسر الذى كانت فيه عند بعلمها فانها كانت عنده الا تفترق عن العجماوات والبهائم ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيراً من المصاعب التى كانت منوطة بأدائها وأسماها نوعاً ما في عين الرجل لأن دخول الغريب إلى العائلة يقضى على أفرادها باحترام بعضهم بعضاً أمامه . كل هذه المنزايا أثرت على المرأة تأثيراً حسناً أهلها لأن ترتقى سلماً من التهذيب . وبترقى المرأة تحسن شأن النوع البشرى وارتقى تبعاً لها إلى معارج الفلاح . أما الآن فلم يبق وجه للاسترقاق فان الأعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكية فأراحت الانسان كثيراً عما كان عليه في الأزمنة السابقة . » انتهى باختصار .

نقول ولو كانت الديانة الاسلامية أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرناً لمكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعتها عن الرقى والمدنية .

ولكن حاشاها من معارضة نواميس الحضارة فانها أقرته بعد أن حصرته في دائرة محيطها الحكمة والعدالة وأسبغت على الأسر والمأسور نعماً لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها فلم تبجه إلا في الحروب الشرعية ضد الأمم الوحشية غير المسلمة بينما كانت الأمم الأخرى متبعة في الاسترقاق طرقاً بربرية يأنفها الانسان ويستقبحها الحيوان . ثم لم يكف الاسلام حصره في هذه الدائرة المحيطة بل جعل للارقاء حقوقاً ما كان يحلم بها أحرار الأمم الأخرى في أكثر الممالك حضرة وتهذيباً . ولو كانت الأمم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بأرقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم إياهم لأنفسهم لقدموا فلذات أعبادهم عبيداً لهم ولرجوهم قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه في سلك تلامذته لكي يراه يوماً ما آدمياً كاملاً ، وفي الواقع بينما كان آباء أرقاء المسلمين واخوانهم هائمين في الفياق والقفار كان هؤلاء في الجمعية الاسلامية موضوع الاحترام والتجلة وشاغلين لأسمى المراكز الاجتماعية في الادارة والحرية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم . أما وحق المواساة والحرية لو علم ملوك السودان ان عمر بن الخطاب الذي كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر اسمه قال لجلسائه ان أبا بكر سيدنا وأعق سيدنا (يعني بلالا) لنزلوا عن عروشهم وقدموا أنفسهم أرقاء لهذه الجمعية التي تجعل عبيدها ساداتها نظراً لمزاياهم الشخصية وخصائصهم الذاتية .

قلنا كل هذا ولكن هل الاسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشر بطرف خفي يفهمه اللبيب أنه سيكون يوماً ما شراً لا خيراً كما هو شأنه الآن ؟ نعم أشار إلى ذلك بآشارة صريحة يفهمها كل انسان ولا سبيل لتأويلها فقال عليه الصلاة والسلام : « شر المال في آخر الزمان المالك . »

أنظر ببصيرتك إلى هذه المعجزات العلمية وروض فكرك في الديانة الإسلامية وكذب ولو بقلبك الطعام الذين ألصقوا بها المشائن الوهمية والمعاير الخرافية فقالوا بأنها تعتبر الرقيق حيواناً وتحت على النخاسة وتندب اليها ومفتريات أخرى تليت في المجامع وتشبع بها كل سامع ، ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر وللباطل أن يدحر وللإسلام أن يعرف ويشهر « ولتعلمن نبأه بعد حين . »

٢

واجبات المسلمين بالنسبة للذميين

(أى لأهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين)

من يتدبر في تاريخ الانسان من مبدئه الى يومنا هذا يتحقق أن محبته لدينه قد تغلبت في فؤاده على كل محبة سواها فتراه يضحي نفسه وأهله وماله في سبيل تأييده ونصره وهو قرير العين منشرح النفس هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الاقوام على غير المراد منها وقذفوا بها الى الافراط الهائل حتى حببت اليهم اجترار كل أنواع المظالم واقتراف أنكار الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين . حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الاجتماعية مما كان له أسوأ أثر في تاريخ أمثال هذه الامم الحقود .

أما الاسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الانسانية فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس في مقدور مجموع الفلاسفة كافة أن يقرروا مثلها في أذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الأفكار أبعد غاية .

كيف توصل الاسلام ياترى الى اقتلاع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقابل شيئاً مامناً محبته في أنفسهم مع علمنا بان أكثر الامم محبة لدينها واحتفاظاً به هي أشدها حقداً على مخالفها ؟ انه توصل لذلك

بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنية ولم يقررها العالم العلمى إلا من منذ
أمد قريب أى بعد أن وقف علماء الانسان والعمران على أسرار النفس
وتأثير المدنية عليها . فبينما كانت رؤساء أكثر الأديان الأخرى يقولون لمتبعيهم
أن الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة متحدة الدين
والأخلاق والعمادات فاعملوا على تأييد هذا المبدأ ما استطعتم لذلك سبيلا
فان اختلاف النوع البشرى يسخط الله لمعارضته لارادته الأزلية كان الله
تعالى يوحى إلى نبيه لباب الحكمة قائلاً له وللؤمنين : « ولو شاء ربك لجعل
الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » *
« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى
يكونوا مؤمنين » * « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من
يشاء . »

وبينما كان رؤساء أكثر الأديان يأمرؤن متبعيهم باستعمال أشد الطرق
الاراهيمية فظاعة لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ولو أدى ذلك إلى قتل
الأبرياء وتيتيم الأبناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله
تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة آى الحكمة قائلاً له وللؤمنين : « وقل
الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » * « لا إكراه فى الدين
قد تبين الرشد من الغى . » * و« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
أعلم بالمهتدين . »

كل هذه الآيات البينات غرست فى أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين
محتا من نفوس كل حقد دينى ولاشتا كل تعصب مذموم : القاعدة الأولى
هى فهمهم من منطوق هذه الآيات ان الله سبحانه وتعالى قضى فى سابق عليه
ضرورة افتراق العالم البشرى إلى جمعيات متخالفة المبادئ والغايات متباينة

المشارب والاعتقادات فيكون الساعى ضد هذا القضاء الالهى بغير ما رسم له عاصيا ربه مستحقاً سخطه وغضبه . القاعدة الثانية هى استنتاجهم من هذه الآيات نفسها ان تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم فى الفهم واختلافهم فى درجات العقل وأن لا سبيل إلى انتشار هذا الدين إلا بين من اسعدهم الجد بادراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم أن يسعوا إلى نشر الحقيقة الاسلامية من بابها وهو الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين . هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلانهم لا ينظرون فى اختلاف الأديان والمتدينين إلا أشياء مرادة لله تعالى سبق بها قضاؤه واستلزامتها حكمته ليتم الابداع الذى أراده وقدره لهذا النوع البشرى . ويزيدهم رسوخاً فى عقيدتهم هذه ما أثبتته علماء العمران حديثاً من أن اختلاف النوع البشرى ضرورى لانماء المدنية واستمرارها ولازم لايراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة .

بعد أن يقرر الاسلام فى أذهاننا هذه المبادئ الحكيمية يأمرنا بالتخلق بأخلاق الله فى معاملة من يلوون كشحاً عن شريعته فانه سبحانه وتعالى قادر على أن يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك بل يعاملهم فى الحياة الدنيا أسوة غيرهم وربما ميزهم عن سواهم إذا كانوا أكثر أهلية منهم لنيل السعادة المادية : « ومن يرد حرث الدنيا نؤته منها . » نعم يأمرنا الاسلام أن نسدل ستارا كفيفاً على معتقدات مخالفينا فى الدين ويحشنا على معاملتهم بأنواع الرفق ومكارم الأخلاق . قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين . » وينهانا عن أذاهم ومما كرتهم ونصب المخاتل لمشارتهم . قال عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه فقد

خصمته يوم القيامة » « من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار »
 هذا وديننا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون ويزجرنا أشد
 الزجر على اهتضام حقوقهم وهو الأمر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أى
 أمة من أمم الأرض . أرني أى أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها
 أصولها لدرجة تقتل أحد أعضائها عقوبة له على قتله أحد الأجانب عن دينها
 الرسمي حالة كونها فى أوج عظمتها وقادرة على أن تفعل ما أرادت من أنواع
 المظالم فى جانبهم ؟ جاء فى التاريخ الإسلامى أن يهودياً اشتكى علياً للإمام عمر
 رضى الله عنهما — وعلى كما لا يخفى ابن عم النبى وزوج ابنته وأحد المرشحين
 لمركز الخلافة — فقال له قم يا أبا الحسن فاجلس أمام خصمك ففعل ولكن
 مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلاً : أكرهت يا على
 أن تجلس أمام خصمك ؟ — قال لا ولكنى تكدرت لكونك لم تلاحظ
 المساواة بيننا بقولك لى يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير الى تعظيم) . قل
 لى بعيشك هل ورد فى تاريخ بنى آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بين أحد
 عظماء أمة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقيصرة وبين رجل من السوقة
 غريب عن ديارها ؟ هذا هو تاريخ الأمم جمعاء يخبرنا أن المساواة لهذا الحد
 لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة فى الأمة الواحدة إلا من منذ زمن قريب
 جداً مما يحدو بنا إلى الجزم بأن هذه العدالة الحققة لم يعمل بها مطلقاً إلا فى
 الأمة الإسلامية

كانت العدالة فى الأمم المتمدينة القديمة إسماً بلا جسم وكانت العقوبات
 تنوع وتختلف باختلاف الرتب والألقاب أما الشعب ذاته فكان تحت رحمة
 أهواء ساداته الأعلى وقادته الغالين . أما المساواة التى يتبجح بها فلاسفة
 هذا العصر فهى بنت الثورة الفرنسية الهائلة التى بيعت بها المهج بالمجان
 وصبغت فيها الأرض بالأرجوان . قال المسيو لاروس فى دائرة معارفه :

إن العقوبات في روما عاصمة دولة الرومان كانت تختلف دائماً في الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف حالة المجرمين وحيثيتهم » ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان الى قانون الفرنسيين قبل الثورة الفرنسية وألصق به مثل هذا الخلل في قواعد العدالة ثم قال : « إن ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التي تحت الألقاب المختلفة التي كانت تابعة لاصالة الشخص أو للوراثة »

فقل لي بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم إذا تحققوا أن هذه المساواة التي يقول عنها الفلاسفة أنها سبب كل سعادة اجتماعية لم تقرر لأول مرة إلا في الجمعية الاسلامية وأنها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهم وبين أحقر حقير من غير ملتهم ؟ اللهم إنا نعتقد أن هذه العدالة ليست من موضوعات البشر ولم تكن في مكتبتهم مطلقاً قبل أربعة عشر قرناً بل هي عدالتك التي غمرت كل شيء وسادت كل شيء ففتحنا اللهم بالتدبر في معجزات دينك إنك على كل شيء قدير

الاسلام يأمرنا بمعاملة الأجانب عن ديننا ومحاسنتهم ولكن لا من باب المواربة والمداهنة خوفاً منهم أو طمعاً فيهم . كلا . بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى أنه ينهانا عن اغتيال أحدهم وذكره بما يكره كما ينهانا عن اغتيال أحدنا سواء بسواء . ولم يحلل لنا بوجه من الوجوه نصب الجبائل لهم لمصادرة أشياءهم تحت ستار القانون المموه أو العدالة الوهمية كما فعله ويفعله كثير من الأمم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم أسوة يجب أن نتأسى بها في معاملة الأجانب عن ديننا ومخالفى معتقداتنا فانه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنازتهم ويعزيهم على مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التي لا بد منها في كل

جمعية محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك . روت السنة الكريمة أن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهنهم أمتعته الشريفة لا عجزاً من أصحابه عن إقراضه فانه كان منهم المثلون وذوو الاملاك الشاسعة وكلهم مستعد لان يضحي نفسه ونفيسه في سبيل مرضاة نبيه ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك تعليماً للامة وإرشاداً لها أن الاسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم في مكان واحد بحجة أنهم مغايرون لهم في المعتقد . وفي ذلك دلالة ناطقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده في بلاد أجنبية عن دينه ولا يضره كون أهلها من غير ملته بل ويسمح له أن يتزوج منهم .

ليس فيما بين أيدينا من أسفار المدنية ما يرينا أن هناك فلسفة تهدي إلى إحترام النوع البشري بمثل ما يهدي إليه الاسلام ويأمر به . تصفح تواريخ الأمم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الانسان على الانسان ما يحملك على اليأس من سيادة ناموس الاحترام النوعي بين أفراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
نعم يرينا التاريخ من آثار ظلم الانسان للانسان ما تقشعر له الابدان ويخجل منه الحيوان وإن كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصاراً للاديان . نحن لا نتصور أن ديناً سماوياً يأمر ذويه بالفتك بمن يخالفهم واستئصال شأفتهم بأفطع الطرق ولكننا ننسب ذلك كله إلى سوء فهم متبعيها وإدخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصية وأمياهم البهيمية . قد بلغت تلك الوحشية في الاكراه لدرجة كانوا يرمون بني نوعهم طعمة للنار المتأججة أو فريسة للحيوانات الكاسرة أو يربطون رجله في ذيلي حصانين شديدين ويطلقونهما في اتجاهين متخالفين أو يصبون على جلودهم القطران والقار الغالين في النار أو يعلقونهم

على نيران هادئة أياماً عديدة ولا يهتمون بانينهم ولا زفيرهم فتساقط لحومهم وتذوب شحومهم . كل ذلك كان يحصل على مرأى ومسمع من الناس فلا يجدون من أنفسهم فؤادا يشفق أو إحساساً يتأثر بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين .

قل لى بأبيك أين هذه الصدور المتأججة بالأحقاد الملتهبة بالاضغان التي تحمل ذوبها على استئصال الأمم ومحو اسمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الاسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة المفعمة مروءة وهمة ؟ تلك الصدور التي كانت تسمح لنواقيس الكنائس أن تدق بأزاء مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكناً أو تسبب غيظاً بينما كانت مقاليد مقادير العالم بأسره بين أيدي المسلمين بلا منازع ولا شريك فانهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يحجروا على حرية أديان مخالفينهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه كان الجيش الاسلامي يدخل مكللاً بالفخار في أحشاء الممالك المخالفة له اعتقاداً فيجعل أكبر همه طمأنة الناس على دينهم وتهديء روعهم على حفظ معابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفاع على ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية في إجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم المالية : كل ذلك عملاً بتعاليم الاسلام وجرياً على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشرى أكثر من كل أمة سواهم أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن يبنى على اختلاف المعتقدات الاباحية المطلقة في سبيل الفتك والقسوة ؟ الاسلام لا يحلل الجور لمتبعيه حتى مع ألد أعدائهم في ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » الاسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف وعمل كل الطرق في أداء واجباته نحوهم قال تعالى :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . »

روى عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت : أتتني أمي رغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألته أصلها قال نعم قال ابن عتيبة فأنزل الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين » الآية وأرسل عمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة إلى أخيه هدية وهو مشرك

الاسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للاديان وهو مرید به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانساني بأكمله بل أن الرجل ليستطيع أن يكون مسلماً وهو في عائلة كل أفرادها مخالفون له في المعتقد والمذهب ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الإطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ما داموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية

الاسلام لا يكلفنا بحميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فيما بيننا فقط بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كفيفاً وحجاباً غليظاً . قال عليه الصلاة والسلام : « خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر » وقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » بهذه الاوامر الالهية عمل المسلمون ويعملون ولو اهتمهم بضد ذلك المضلون . كان عمر جالساً بين أصحابه فمر به رجل من أهل الذمة يتسول فنظر إلى مجالسيه وقال لهم : أنا لم تنصف الرجل أليس أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ ؟ كلا . وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين . فتدبر رحمك الله في هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحبة والعجب

كيف تمكن الاسلام بنور الله أن يؤثر على أفئدة أولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم غرة في وجه المكارم وآية في عدم الحقد الديني في زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشري بأسره .

أما حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى فما لم يرد مثله في تاريخ البشر قاطبة . نعم بلغت منهم حسن المعاشرة لمخالفهم في المعتقد مبلغاً لا تراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين ريباً في أسرة واحدة وتفرعا من نبعة مشتركة . قال مجاهد : « كنت عند عبد الله ابن عمر و غلام له يسلم شاة فقال يا غلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مراراً فقال له كم تقول هذا ؟ فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه » قارن رحمك الله بين هذه المعاملة المدهشة وبين ما تسمعه في البلاد المتمدينة من الجمعيات السرية والجهرية التي تتألف يومياً ولا هم لها الا اضطهاد اليهود واذلالهم . هل بعد ما بيناه في هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسمعوا المسلمين بتهمة الحقد الديني (التعصب) واضمار الشر لكل من ليس من ملتهم ؟ انا نسمع كل يوم في بلاد المدينة بأمر نازلة من اثار الحقد الديني ما يجعلنا نخجل من سماعها ، فهل سمعت يوماً انه قامت في بلاد اسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التي تدين بغير الاسلام ؟ اللهم لا

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارئ أن الحقد الديني الذي بزهدنا على تجرد الاسلام والمسلمين منه منذ ثلاثة عشر قرناً الى الآن كان ديدن سائر الامم وداءها الذي أعيا أطباءها وانه لم يتوصل الى تخفيفه — ولا أقول ملاشاته — الا منذ قرن تقريباً ولا نرى لذلك سبيلاً أحسن من نقل ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت جون سيمون في كتابه حرية الاعتقاد

قال : « ان حرية الاديان ليست ببعيدة العهد فان تاريخ العالم كله هم عبارة عن تاريخ الحق الديني (التعصب) هذا الحق الديني الذي هو أقدم من الحرية يتصاعد الى أبعد عصر في التاريخ » ثم عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى الى الأعصار الوسطى ثم قال : « وأخيرا توصلت الروح الفلسفية الى تقرير حرية الاديان في ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ولكن لم تحقق هذه الأمانة العادلة الا في سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فان الثورة الفرنسية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الإدارة في الأعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية . »
أما يحق لنا نحن بعد هذا كله أن نرفع صوتنا قائلين : ليحيى الاسلام دين المدينة والسلام ؟

٣

واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهدتهم

ان حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الاسلامية فلا يبيح الاسلام نقضه لأي سبب من الاسباب الا اذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه كما انه لا فرق لدينا في حفظ العهد بين أن يكون معاهدونا من أهل الكتاب أو من المشركين . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود » وقال الله تعالى بعد تعداد صفات المؤمنين : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » هذا ومن يتصفح تاريخ الاسلام من أول نشأته للآن يتحقق أن المسلمين رجال يضرب بهم المثل في حفظ العهد وصدق النية في القصد وفي تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الامم في طهارة الذمم وعلو الهمم . ومن يتصفح القرآن الكريم ير فيه من الاوامر

لحفظ العهد والنهي عن نقضه ما يجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لا تضارعهما
 شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العدالة وشدة يقظتها في عدم تعدد
 حدودها . ألا ترى أن الدين في أثناء تحريضه لعصابته الضعيفة بالثبات أمام
 عدوهم الشديد البطش لم يغفل عن تذكير أبنائه - حتى في هذه الساعات
 الشديدة المخاوف - بمعاهدتهم لكيلا يلحقوا بهم أقل اذى ؟ قال الله تعالى :
 « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم
 ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله
 يحب المتقين »

أما معاملة المسلمين لأفراد الأمم المعاهدة لهم فلا تفرق عن معاملتهم
 لأهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليهم في الفصل السابق وقد أوصى عليهم
 نبينا صلى الله عليه وسلم فقال : « أمرني ربي أن لا أظلم معاهداً ولا غيره »
 وقال عليه الصلاة والسلام : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة »
 « من أمن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل ولو كان المقتول كافراً »
 هذا ومن يتصفح تاريخ الأمم المتمدنية في القرون السابقة يقشعر جلده
 من سلوكهم من الأمم الضعيفة فانهم ما كانوا يعرفون للحق قانوناً غير القوة
 ولا للفضيلة ناموساً غير القوة . فمن كان ينكده الحظ بأن يصير ضعيفاً كان
 يقع تحت ذل الأسر والعبودية ويقيّد بالسلاسل والاغلال ليكون آلة
 لمواليه في الحراثة أو الصناعة أو غير ذلك



واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم

من المجمع عليه تاريخياً أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأمر الدعوة
 الإسلامية بمفرده في مكة المكرمة فتبعه أفراد قليلون منهم نساء وأطفال

وشيوخ فاضطهد هو ومن أسلم معه اضطهاداً شديداً وعذبوا عذاباً أليماً مما لا يمكن أن يحتمله إلا من يرى الهلاك أيسر عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ما حصل لخباب رضى الله عنه حين أسر وعذب بالنار ولما عرضه للقتل استأذن في صلاة ركعتين فصلاهما ثم قال لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لأطلتهما . اللهم احصهم عدداً . وأقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ، ثم انبرى منشداً :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
هذا ما حصل لأحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وأفظع مما يطلب
تفصيله من كتب التاريخ . فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة
ثلاث عشرة سنة . ثم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة ثانياً
فتموا واشتد ساعدهم فرمتهم العرب كلهم عن قوس فظلوا فى المدينة فى أشد
الخوف والوجل حتى كانوا يقولون : « ترى نعيش حتى نبيت مضمئين
لا نخاف إلا من الله عز وجل . » فأنزل الله عليهم هذه الآية طمأنة لهم
وتسكيناً لروعهم . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » ثم لما تجمهرت
عليهم القبائل وأنهم متحمسة حاقدة بقصد إبادتهم واصطلامهم أذن الله لهم
أن يدافعوا عن أنفسهم ويثبتوا وأعدا إياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين
فقال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير .
الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . » فكان سيد

الأنام عليه الصلاة والسلام ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك
الجيوش الهائلة والكتائب المتراكمة المتراكبة وهم مطمئنون متيقنون أن
الله تعالى لا بد أن يحقق وعده لهم ويمدهم حيث قال : « وعد الله الذين
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ . » * « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى
أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . » *
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . » * « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله
قوى عزيز . » فاستمرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد
والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله في أثناها قلوب
عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره على كل ما يمكن تصوره من
المصائب حتى تنقت قلوبهم من كل شائبة وصار إيمانهم أنقى من النقاء وأصفى
من الصفاء ثم مكن الله لهم في الأرض وجعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم
السفلى وصاروا قادرين على إبادة أضدادهم عن بكرة أبيهم . ولكن
كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الاسلام دين المدنية والسلام ؟ حاشا
بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم قال جل جلاله : « لا ينهاكم
الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا
إليهم إن الله يحب المقسطين . »

ولما مكن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم على الذين ظلموهم
في أول نشأتهم وأذاقوهم أنواع الآلام أمرهم أن لا يتبعوا دواعي الانتقام
والتشفي لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم أن ذلك يعد
عدواناً وظلماً فقال تعالى : « ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد
الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان
واتقوا الله إن الله شديد العقاب . »

لم تأت هذه الأوامر بالنسبة للمتهورين فقط بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى في أثناء اشتعال نيران القتال قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . » ومن الاعتداء عند المسلمين سب أعدائهم ولعنهم . لما قتل المشركون عم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة ومثلوا به وأخرجوا كبده بكي عليه بكاء شديداً وحزن حزناً لا مزيد عليه ودعا عليهم فأنزل الله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء . » أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون . » فكف عن الدعاء عليهم وقال لئن ظفرت بهم لأمثلن بأربعين منهم فأنزل الله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » فقال عليه الصلاة والسلام « أصبر وأحتسب . »

أما من جهة أسرى الحروب فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم وإكرامهم وعدم إساءتهم فقال : « استوصوا بالأسارى خيراً . » فصار أصحابه ائتماراً بهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفونهم بالتمر .

تدبر رحمك الله ما قدمناه لك في هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الإلهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التي كانت جاعلة نفسها طاعوناً مجتاحاً للنوع البشرى فهامت فيه قتلا وسفكا وتسخييراً واستعباداً . واعلم أن كل ما تراه من آثار العدالة في حروب هذا العصر ليس هو إلا تقرباً لهذه العدالة الإسلامية التي هي نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله في النوع البشرى . فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم في العالم وإبطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجده فيه فإن الاسلام لا يهزأ بعملها هذا بل ينشطها فيه حتى إذا تم لها ما تؤمله بمساعدة الملوك والقيصرة ودعمته على دعائم الاخلاص وصدق الطوية مد كل مسلم إليها يده تالياً قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . »

نظرة

على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا في فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التي انبنى عليها كل ما نراه من الترقى في العالم المتمدين وأقننا الأدلة الحسية على أنها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرأى أنها مستمدة منه ومأخوذة عنه ، وبرهنا ضمن ذلك على أن هذه الأسس الاسلامية لا يحتمل أن يعثرها التبديل أو يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترقى يحصل في العالم وكل خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال ليس هو إلا تقرباً إلى الاسلام وإنه سينتهى الأمر يوماً ما باجماع عقلاء البشر كافة على اعتبار الاسلام ناموساً عاماً للسعادتين وضامناً لراحة الحياتين .

نعم ! الاسلام هو الدين العام الباقي بقاء الانام والقانون الذي تلبسته الفلاسفة الاعلام منذ ألوف من الاعوام . اهتم عقلاء الأمم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحققة بين أميالهما بطريقة تمنع تسلط أحدهما على الآخر اهتموا بهذا الأمر وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بأن الانسان المركب من نفس وجسم اذا لم يراع تمام الاعتدال في مطالب هذين الجوهرين وقع في الافراط في مطالب أحدهما ومتى حصل له ذلك أخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه في تيار شديد القوى لا يسرع به الا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه أو عضوا مشلولاً فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل أسطع ولا

بعد حوادث التاريخ برهان أقطع على أن كل المذاهب التي لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الأمم التي تسود عليها إلى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلق المزجة آماداً مستطيلة حتى يسود أحد أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقة ولم يجد أمامه مقاوماً يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه الإفراط في أحد نوعي مطالب الإنسان ولم يلبث أن تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبراً على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالأمس . ومن يتصفح تاريخ الأمم ير بعينه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه إلى بحث طويل

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تليس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقاً عادلاً ويربط صلاح أحدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة . وقد اثبتنا في فصولنا المتقدمة أن النفس عرضة للأمراض المختلفة وللشفاء منها كما هي حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان الرجل لا يستطيع أن يحمي جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة إلا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتالة . ولما كان هذان الجوهران المركبان للإنسان موضوعين بطريقة بها يتأثر أحدهما بمرض الآخر وجب أن يكون ذاك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون في السير على أحدهما اضرار بالآخر . هذه الحقيقة أصبحت في هذا القرن خصوصاً من البداءة التي لا يمتري فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة بصحتها . وهذه الحقيقة نفسها هي التي بعثت خاصة علماء أوربا إلى تأليف ديانة سموها الديانة

الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البدأة العلمية والحقائق الفلسفية ونحن نستحسن أن نأتى في هذه العجالة على أهم قواعدها مترجمة من كتاب (الابحاث الأخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو . قال : «قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني . والاعتقاد بوجود روح في جسم الانسان متصفة بالذاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى أمداً لتبلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تظهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس ووضع الحرية الأخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات الأخرى تحت سيطرة الاعتدال السكلى . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم . والتهيب لساعة الموت بالزهادة وأخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة . »

لاشك أن كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفي قواعد هذه الديانة الطبيعية ير بعينه أن الاسلام هو تلك الامنية التي تحسسها الفلاسفة وتلمسوها في سائر أبحاثهم العلمية من قديم الزمان إلى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التي يخطوها النوع البشرى بين كل هذه القلائل الاجتماعية في سبيل الرقى والتدرج متقرباً كل يوم من قواعد الدين الاسلامى على غير علم من أفرادهِ ويتأكد أن الاسلام هو الغاية القصوى التي وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره وأفاعيله في تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله

تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »
من هنا أيضاً يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذي حصل
في الأمة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانت من الوحشية
بمكان ليس دونه مكان .

فلنبحث في حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية
التي انتهكت قواهم منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم
بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الأسف رأينا أكثرهم
أغضى كل الأغضاء عن ذات العلة وأخذ يجهد نفسه في مداواة الأعراض
المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته مادام سبب المرض لم يزل ينتج
أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعي في جسم الهيئة
الاجتماعية الاسلامية . أما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذي لم ينتج
فائدة ما بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى
نصل بعون الله إلى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة
دوائها وكيفية تطبيقه فنقول :

لا يخفى على كل إنسان أن مدينة المسلمين التي تكونت جرثومتها في جزيرة
العرب ففرغت أفنانها في مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن
لها من سبب أولى غير الديانة الاسلامية . ويتمكن كل إنسان باستقراءه
التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدينة كانت أسرع المدن
سيراً وأكثرها لائلاء وأوسعها بقاعاً وأعجبها منبتاً وأقواها امتلاكاً لأزمة
ذويها وتأثيراً على أذهان متبعيها وأنها كانت جامعة لنا موسى كل السعادات
الاجتماعية وهما العلم والعمل .

هذه أمور يهديها النظر المجرد في تاريخ المسلمين في مبدأ أمرهم ولسكننا
الآن لو أجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلامية فلا نرى

إلا عكس ما كان عليه أبائنا الاول نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا
 القهقري وآخذة في محو وجودنا شيئاً فشيئاً مع أن كل العناصر المكونة لمجموعنا
 لم تنزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك
 مصداق لقول متطرفي فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عمومها تقييد
 الانسان عن الرقي ومنع النفوس عن التدرج في معارج السكالك ؟ كلا . فان
 أقل نظرة في حالة العرب في جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم في مدنياتهم
 وسرعه رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على
 كذب هذه المقولة . إذن هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل
 قاعدة مهما كانت ممدنية للامم ومرقية لشأنها في عصر من العصور لم تخل من
 أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقي في المستقبل لمضادتها لسنة الأزمنة
 والمناسبات ! كلا . فانا درسنا أهم نواميس الاسلام في كتابنا هذا درساً
 مدققاً فلم نره إلا مطابقاً لقوانين الحياة البشرية ملائماً لقواعدها ورأينا رأي
 العين أنه لم يضع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر
 كل قيد وضعه المشرعون الاول جهلاً منهم بسنن الحياة المستقبلية وأطلق كل خصائص
 النفس من أغلالها الأولى وترك إيلها أعتها ولكن بعد أن نقلها إلى جادة الاعتدال
 والحكمة ونحن لا ننتظر أن يأتي زمان يقال فيه أن الاعتدال مذموم وأن
 الحمود هو الإفراط أو التفريط . إذن ما هو السبب في تأخر المسلمين حتى
 عن مساواة آبائهم في عشر فضائلهم ؟ أما أن فلا نجد السبب إلا في
 هذا الامر المهم ألا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه
 واليك التفصيل :

إنا قد برهنا في فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث
 النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الأولى أن غرض الاسلام الأول
 هو ترقية شأن الانسان مادياً وأدياً على حسب ناموس الرقي العام

الذي استدل عليه باستقراء أحوال الانسان وتطوراته ، وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يظهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لاداء وظيفتها الا أشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلا في الازهان ولا للريب مجالا في الوجدان ، ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لا يفهم من الاسلام الا انه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات في الدنيا أو نيل الدرجات العلى في الآخرة ولا يعلمون منه إلا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج وأما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التي بعثت الامة العربية من جدث خمالتها الاولى إلى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحاً مع أنها هي لباب الدين ونبذة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه

جاء الاسلام موفقاً بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الأخلاقية وبين مطالب الجثمان من الأشياء المادية ليكون متبعه إنساناً كاملاً عادلاً بين مطالب طبيعته موفقاً بين أميال جوهريه فيقول الله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرفته ولا آخرفته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه . » ولكن لوى سوادنا الأعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الأمم السابقة في فهم الدين وزعموا أنه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم في ذلك أفكار ما أنزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « إن من فقه الرجل إستصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك . » فأسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء أنفسهم أن الدين هو عبارة عن التفرغ الكلى من علائق الدنيا

والانفراد المطلق من كل الأميال البدنية . فعلوا كل هذا ولم يعلموا أنه
السرطان الذي أباد الأمم السابقة والطاعون الذي استأصل النحل المتقدمة .
ولكن كيف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون في محالهم جاعلين سدا
منيعاً بينهم وبين هذه الآلة ؟ « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور . »

هذا الفهم السيء في معنى الدين ادانا إلى تغيير معنى التقوى عما كانت
عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن أصحابه الكرام . فالتقى على
حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذي خيم عليه الخمول والكسل وترك
الجد والعمل ولم يترك له في الدنيا أقل أمل . وكان على تمام الجهل بأحوال
الأواخر والأول . والذي ان مشى كان على مهل . وان جلس كان في عنقه
ميل وان دعى إلى مهمة أورثها الخلل والزلل . هذه هي صفة التقى عند أكثرنا
الآن وهو كما يراه كل متأمل في أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما
كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم . كيف لا وهذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الديني كانوا كما يعلمه الخاص
والعام ويرويه التاريخ للأنام رجال الجد والعمل وأهل الشيم والهمم وقادة
العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار إلا وردوها ولا راية للمجد إلا رفعوها
حتى أعلوا كلمة الحق على الأباطيل وقوضوا دعائم الجور والأضاليل مما
يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقها سحقاً أو لحظت
الثريا لمحقتها محققاً . همة يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد
همتهم بجانبها إلا عجزاً واقتصاراً . همة عرجت بنفوسهم إلى سموات الرفعة
عن دنيا الأمور وسفاسف الأعمال وعلت بهم عن التدنى للفجور وخسائس
الأميال . همة كما ذادتهم عن الرتوع في مموه الشهوات بعشتهم إلى منازل

الكالات . وكما ردتهم عن وهاد الزلات حشتم إلى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة في صورة آدميين ونورا ساطعاً ولو كان غلافه من طين : هذه هي التقوى التي رسمها الاسلام لمتبعيه وخطها لذويه لا ما نراه الآن من التقوى التي لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحذور . هذا الفهم السيء في التقوى الذي أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم الناس إلى قسمين : قسم سميناه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية . وقسم سميناه أهل الأخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانباً ووقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشى في الطرقات خلف الطبول وتحت الاعلام . وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره في العالم الاسلامي منذ قرون عديدة أن وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي عليها مدار السعادة المادية كما قصر أهل الآخرة أنفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية فصار القسم الأول بهذا الاعتبار جاهلاً للدين جهلاً بوقعه في الشكوك والشبهات وصار القسم الثاني جاهلاً للعزوز الذي أداه إلى العماية عن سياسة أحواله المعاشية فوقع في العوز الذي أداه إلى مديده وإراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف :

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامي من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلاً قلنا فيما سبق أن الاسلام هو الدين العام الذي يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقاً لا محيص منه لمن أراد أن يستقيم على الجادة الحكيمة وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة وقلنا أن الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام : « من تبتل فليس منا . » وأنه جاء لصلاح الدين والدنيا معاً « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليست خلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . » وأكدنا بالأدلة الناطقة أنه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيراً على الأذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وأن الأعمال في نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فإن ترك الإنسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقاً موزوراً وأن نوى صالحاً فأخطأ فيه كان مثاباً مأجوراً قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات . » وقال على رضى الله عنه مامعناه : « من أخذ الدنيا بما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد . »

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه في فصولنا المتقدمة وأقننا عليه الأدلة التي لا تقبل النقص ونزيد هنا تحويل الأنظار إلى أحوال الجمعية الإسلامية الأولى فإن أفرادها لم يكونوا منقسمين إلى قسمين قسم دنيوى وآخر أخروى بل يروى لنا التاريخ أنهم كانوا كلهم يدا واحدة في العمل للدين والدنيا معا فان أبا بكر وهو أول المسلمين كان تاجراً ولم يبطل مهنته إلا حين تبوأ عرش الخلافة . وروى الامام أحمد بن حنبل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم . ولقى أبو قلابة رضى الله عنه صديقاً له في المسجد فقال له : « لأن أراك تطلب معاشك خير من أن أراك في زاوية المسجد . » وكان عمر رضى الله عنه يقول : « ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع واشترى . » ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للآخرة فكان يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ويقول : « احرقوا فان الحرق مبارك . » ويقول : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » ويقول : « تسعة أعشار الرزق في التجارة » ويقول : « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال »

هذه هي نصوص الديانة الاسلامية وأحوال جمعيتها الأولية في عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذي حمی المسلمين في مبدأ أمرهم من الانقسام إلى حزب ديني وحزب دنيوي وهو الأمر الذي يوجد التخالف بين نزعات الأمة وينشئ التناقض في أغراضها فيتولد التضامن والتباغض بين آحادها رغما عن كل عوامل التآليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الأمر إلى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطما يفضي بالجمعية إلى الفوضى الفكرية ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الأساسية التي تربط أجزاء الأمة بعضهم ببعض وأخذوا يشعرون بسرطان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم في مستقبلهم . فاذا انتهى حال الأمة إلى هذه الدرجة أخذ القسمان الديني والدنيوي يتبادلان إلقاء المسؤولية على بعضهما فينسب الدينون ذلك الفساد الطاريء إلى تمادى الكافة في شهواتهم البهيمية ويعزوه الدنيويون إلى تقصير أساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزغات ذوى الأهواء ويستثمرون في هذه الملاحة الفارغة بينما تكون جرائم الفساد آخذة في التفشي والانتشار جارفة الأمة أمامها إلى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هي حالة الأمة الاسلامية فانها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الأولى فأوقعتها فيما وقعت فيه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلها أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقى التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم أكثر الأجيال شعورا بضرورة فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشدّها تقرّيعا لعلمائنا في تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر . نعم اننا نشعر بتهيئ النفوس إلى انتشاق نسائم الكمالات الاسلامية المحيية لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقي الذي قد عم وطم وساق النشأة الحديثة إلى نقطة فقدت فيه

الاحساس إلا بالدنيا والادناس . نعم إننا نرى بؤاد ذلك الشعور لائحة
إلا اننا نستطيع من قرائنا الحرية لاجل أن نقول أن ذلك الشعور لم يستكمل
شرائطه الضرورية . فكأنى بالناس يريدون أن تمطر السماء عليهم هذه
الفضائل الاسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على أسرته منصرفون
عن كل ما يقرب ذلك الأمل أو يجعله ممكناً . بل كأنى بهم يرون أن تلك
الفضائل لا يمكن تأتيها إلا بواسطة رجال يلبسون شكلاً خاصاً من اللبسة
أو يقرأون كتباً مخصوصة في العلوم .

كلا فانا ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون
لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود في دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل
الاسلامية التي كان يفهمها الاعراب الخلو في مدة قصيرة لا تعسر مطلقاً على
نشأة هذه الأمة المتهدبة .

أسس الاسلام لا تحتاج لاجل أن تنفذ إلى العقول إلى جدال أو إلى
تمهيد بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند عليها بها
بطمانينة وراحة لا يستطيع التعبير عنها بوجه من الوجوه . فان كان الرجل
عالماً بحقائق الكون وأراد أن يفسر سر تلك الطمانينة التي سادت على نفسه
فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه إلا أن يتدبر في أسرار
الخلق وفي تكاليف الحياة البشرية وفي النواميس الناطقة السائدة على مجموع
هذا الكون بأسره وفي الغرض الذي يسعى إليه الانسان رغماً عنه ليرى بعينه
عياناً أن تلك الأسس الاسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هي
المحجة الوحيدة الى توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه
وأخراه . وأنها هي نفس المحجة التي خلق الانسان مطبوعاً على تلبيها رغماً
عنه والتي يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون في تدليل كل الصعوبات
للولصول إليها .

إذا كان هذا شأن أسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا
تباكي على فقداننا تلك القواعد ونشتكي من قصور المرشدين عن إبانها مع
أنها مبسطة بأصح عبارة وأرق إشارة في القرآن الشريف وفي سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح ؟ هل يظن المسلمون أن الله
تعالى لم ينزل القرآن إلا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سردا وبدون
تعقل على رؤوس القبور وفي أوساط الطرقات أو ليتلى بالأحان الغناء في ليالي
الأفراح بين لغط الترجيلات ودخان السجارات ؟ أم هل يظنون أن أحاديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح أن تتلى إلا لقضاء الحوائج وحصول
البركات في المنازل ؟ ليعلم المسلمون إن كل هذه الأمور تنافي الاسلام وتساعد
على استجلاب سخط رب الاسلام

ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة ، وأحاديث رسول الله وهي خلاصة
قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها في الطروس ونشرها بين سائر طبقات الأمة
إلا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادت ومساك الحياتين وفي
تاريخ المسلمين أكبر حجة على قولنا هذا . ها نحن شعرنا بالحاجة إلى كمالات
الاسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته « ولا نكلف
نفساً إلا وسعها »

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء أمام أعينهم وهم على شفا الهلاك من
الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى أفواههم بدون مد أيديهم ؟

أليس من العار الشائن أن نصرف كل أوقاتنا في مطالعة روايات (أميل
زولا) و (بول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطاوعة ذلك
الكتاب الذي جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود بأسره ؟

انا ندعى التمدين والتنوير ونميل للتشبه بالمتمدنين في الجرى وراء
اكتشاف مساتير الكون ونرمى القاعدين منا بالخنول والموت الفكري

ونحنى رؤوسنا إعجاباً بنظريات (سبنسر) فى العمران (وغمبتا) و(تيرس) فى السياسة و (ريبو) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذى لو أفنى علماء العالم كله أعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا إلى الغاية منها ، لعلنا نخجل من الاشتغال بالأمور الدينية تقليداً لغيرنا خشية من أن تتهم بالقصور العقلى . إن كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنيننا عنه إجمالة نظرننا قليلاً فى كتابنا السماوى لنرى أن الاسلام ليس بالدين الذى يأمر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغاس فى المهانة أو باضناء الجسم فى العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبل بل هو الدين الذى يأمر بالكد والعمل ويحبب الانسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه إلى الفضائل والشيم ، كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها إلا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فملتكم فى الاسلام والحالة هذه لا يكون مردداً لأفكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقاً عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنظريات تصيح بالدلالة عليها السنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعتريها خلل ولا يعتورها زلل . بأسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بأنوار تنفذ إلى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمساً لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لألأؤها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة . تداوى جراح الأفتدة مما أصابها من سهام الحوادث وتضمّد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين أوهامها وتطهرها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه إلى سعادتها من بابها وتمزق دونها كفيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الأعلى وتنال منه زبد العلم الأجل .

ألا تنظر إلى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل اشراق الاسلام عليهم ثم إلى مصيرهم بعده ؟ ان الرجل منهم في الجاهلية كان يذهب بابنته إلى الفلاة وهي على ذراعيه فيحفر لها حفرة وهي تنظر إليه وتحنو بفؤادها عليه فلا يجد في نفسه فؤادا يحنو عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب إلى أهله فرحاً مسروراً كأنه لم يفعل إلا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة . تدبر بعيشك إلى هذه القلوب القاسية والاحساسات العاتية ثم انظر إليهم بعد اعتناقهم للاسلام . ترى ماذا ؟ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربي في مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة . ترى أمثلة للشهامة والفضيلة وأساطين للسجايا الجليلة أو الأخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الأخلاق بمثلهم ومقالمهم قصور ما دونوه في أسفارهم . ترى أناساً نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقارا ويفوقون الأكاكسة همة واقتدارا . أنظر إلى عمر بن الخطاب وهو الذي تعلم تاريخه في زمن الجاهلية وإلى ماذا آل أمره بعد أن أسلم ببضع وعشرين سنة : آل أمره إلى إدراك الحكمة وسياسة وثبات أعز بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم بما يقصر عنه أكبر ملك تربى في مهاد التشريع ويكبو دونه أعظم فيلسوف ولد في حجر الحكمة والسياسة . وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لأجلها أياما عديدة . فكأن المتنبئ عنه بهذا البيت :

قسا فالاسد تفزع من بين يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا
من أين حصل له هذا وبماذا ناله ؟ هل درس الأخلاق في مدارسها
الكلية أو علم العمران في مجامعها العلمية أو السياسة في معاهدها البرلمانية
أو التشريع في المدارس الحقوقية ؟ كلا . لا شيء من ذلك ولكنه كان يتلو

القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلاً لترى بعينك سلطة الدين الاسلامي في إحالة الطباع وسرعة تأثيره في تغيير اتجاه النزعات وفي تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه فما بالناس نبيذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظلم نتساءل عن حكمة تتعلمها أو أخلاق تتصف بها ونقتنع بعد إخفاق المسعى بأن نلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسيء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القصور والمدافن يتلوها رجال لا خلاق لهم من العلم هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول : « واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين . »

خلاصة القول أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الاسلام ويدركوا أن غرضه الأول هو ترقية حالتى الانسان المادية والأدبية معاً لارتباطهما ببعضهما ارتباطاً كلياً لأجل أن تستطيع النفس أن تعرج إلى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجاً سريعاً . وأن يفقهوا أن لفظة عبادة في الاسلام لا تعنى فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل أن كل ما يفعله الانسان مريداً به أمراً ينبى عليه إصلاح لذاته أو لأسرته أو لجمعيته أو لبنى نوعه أو للكائنات كلها هو في نظر الاسلام من أحسن أنواع العبادة وأشرف أشكال الطاعة لله عز وجل : « إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته » والشاة إن رحمتها يرحمك الله » حديثان شريفان . وإن يدركوا أن الاسلام لا يعارض التقدم في الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب إليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الأسس الاسلامية تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية وألوف من الاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الأولية حتى إن المرشد المتتور ليستطيع أن ينقشها في مخيلة تلميذه في درس واحد

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة
والاطلاع عقبات لا يزعجها عن مواضعها إلا كرو والزمان عليها وحصول
مناسبات مساعدة لنشرها

وإنا نختتم مقالنا هذا برفع أ كف الرجاء إلى الله جل وعز أن يهدينا إلى
صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وأن يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم
وأن يحسن خواتمنا أجمعين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله
وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليما كثيرا



الأصول التي دعا إليها الإسلام

رأينا أن نلحق بهذا الكتاب بحثاً كتبناه بعد وضعه بنحو عشر سنين لما فيه من بيان لأصول الإسلام تحت نور العلم العصري، وهو بحث له موضعه من هذا الكتاب فإليك :

الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم النبيين محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم وهو من أشهر الأديان وأكبرها شأنًا وأقواها على الشبه وأبعدها عن الشكوك

أوحى هذا الدين في القرن السابع الميلادي أي في عصر كان فيه العقل الإنساني قد بلغ رشده، واستعدت فيه النفوس لقبول وحى يوفق بين الدين والدنيا ويؤاخي بين العاجلة والآجلة، ويطلق للعقول حريتها الفطرية لاستجلاء غوامض الوجود، واستطلاع خافيات النواميس العاملة فيه مما يميز الإسلام عن سواه من الأديان التي تقدمته تصریح كتابه بأنه دين عام قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وقد كاتب النبي صلى الله عليه وسلم ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد يدعوهم إلى الإسلام باسم هذا النص القرآني :

(هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد ؟) إن مجيء الإسلام للناس كافة وليس للعرب خاصة يستدعي أن يكون لجميع أمم الأرض حاجة إلى دين جديد فكيف كان حال تلك الأمم في عهد البعثة المحمدية، وماذا كان مبلغ تلك الحاجة منها إلى الدين أو إلى أي حادث اجتماعي جليل؟

يحمل بنا أن نورد ذلك عن لسان أحد الأجانب عن الدين من بحاثي الأفرنج فإنه أدنى لأن لا تنهم بتحيز وأن لا نوصم بمغالاه. فقد كتب البحاثة الفاضل المسيو (جون لا بوم) الفرنسي في مقدمة الفهرس الذي وضعه للقرآن

الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية بحثا في هذا الموضوع نراه أجمع ما كتب في هذا الباب ونحن موردوه هنا عنه . قال :

« لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم مرمى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الامام بحال الداعي في ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصناها للمشرع العربي مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية

» حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن السادس الميلادي كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب (الوزيغو) الآريين في اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم اجبروا إلى الدخول معه في حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين

» أما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين المملكة الوزيغوتية (برنهو) والمملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيء للتاريخ أشد الصعائف اثاره للاسى والسكد « أما في انجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة — وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة .

« أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشاخص قد فقد خطورته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتشتم (يعني مملكة الرومان) في حالة تمليلها من استحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط ترتج وتضطر كلها ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا ، فكانت تهى نفسها لأن تكون مركزا للبابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلماني) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) (والاستروغوتين) وامبراطرة المملكة الرومانية (والامبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق فكان (الاسكندينافيون) و (النورفيجيون) و (الدانياركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تراقيا) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة . في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الأمة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي لا علاقة له بالثبوت بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس : تلك كانت مفاصد قيصرية محتمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ في الأوحال (١)

« أما آسيا فلم تكن أهذا بالاً من أوروبا في شيء فملكها (تبت) و (الهند) التي اقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن قرائنها وأفكارها العامة ولغاتها ، السياسة والفلسفة . وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية

• أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن . فكانت غير معروفة على الإطلاق . أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصاً من لدن غارة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة في حروب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على اسيا الغربية

• أما في افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلطة دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبه وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفندالين) » والخلاصة كان جوال العالم الأرضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة . وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وان كان وقتياً إلا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى

روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل
لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البيهيمية واستحالت
إلى وحشية محضة

« ومع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من
هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب
موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة . ذلك
الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن
الهائلة في أوروبا إلا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللفظ إلا في غاية الضعف
والضئولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين ولم تكن تتعدى علاقاتها مع
آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار
الاتصارات أو الهزائم التي كان من ورأها رد بعض الوديان الغربية القريبة
من روسيا إلى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك
بالتبعية الاسمية عنها . على أن ذلك الوادي الأخير كان يهيم بلاد العرب جدا
لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ
الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير
الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب
الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين
وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون
السلطة وعاملوهم معاملة البهائم

« أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد
الحبشة ، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت
بجانهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية
والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب :
 « إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما
 المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم وكان عرب سورية
 دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم
 التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك
 الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه »
 ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم
 لقبول أى دين من الأديان قال المسيو « دوزى » في كتابه تاريخ « عرب
 إسبانيا » : « كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب
 ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع
 هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم ، نعم
 يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد
 فنسرب إلى اليهود وحدهم أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون . وكان
 المتمدنون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . . . وكانت هذه الديانة تحتوى
 على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير
 الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة الذين كان
 لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى
 ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم
 بعض الاحترام . ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق
 إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية
 بعد أن نذروا لها نعمة وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً
 الشمس . فكناكة كانت تدين للقمر وللدبران وبنو لخم وجرهم كانوا
 يسجدون للمشتري وكان الأطفال من بني عقد يدينون لعطارد وبنوطى

يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية وكان عليهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية . قال (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان منهم من يعتقد بفناء الانسان إذا خلعت المنون من هذا العالم ومنهم من دان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الآخرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا ترح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده فإذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة « أسقوني » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا بوم بعد إيراده هاتين الجملتين عن الأستاذين السابقين « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتاع لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا - وهي نقطة تلفت النظر - تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى الالتفات بنوع أخص . » ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقطعة : كان الغرب مغرمين بشرب الراح

« ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به وبلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا عمقوتا

وكان هنالك عادة أفضع من كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم . (أى دفنهم أحياء)

(هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى

» الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الامة العربية والذين كانوا مبغضين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً ولا يظهر أنهم كفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الامة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية ، ولئن شوهدهم أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لا شترأ بهم في الأساطير التاريخية . وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين . تلك القرابة يستدل عليها بتساويهم في حب الكسب وتآزيمهم في الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حظام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدنى أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً إلى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ولكن لم يكن في حالهم نور يستلقت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد » في عهد هذه الأحوال الحالكة وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ « انتهى من هذا البيان يرى القارئ أن العالم الانساني كان بحاجة إلى حادث جلل

يزعج الناس عما كانوا فيه ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من
 المأزق الذي تورطوا به ، ولله في خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول ، فلا يتقدم
 العهد على دين ، ويحمد منه الناس على شكل يمنع ترقيمهم حتى يبعث إليهم
 ما يلفتهم إلى النظر ، وينبهم إلى العبر ليجددوا مارث من تقاليدهم وفسد من
 أحوالهم ، وقد جاء الاسلام فأحدث هذه النتيجة المطلوبة بما أقام من الدول
 وأسقط من الممالك ، وأصل من الأصول ، وهدم من التقاليد وناهيك به من
 انقلاب زعزع أركان دولتي الرومان والفرس وهما دولتا العالم إذ ذاك في
 أعظم قارتيه آسيا وأوروبا وقد استتبع تزعزع أركانهما ضعفاً سرى في
 مجموع تقاليدهما الرثة فتخلصت أمم من نير استبدادهما وتهاياً ما بقي منها
 للدخول في أدوار جديدة من الحياة وتلا ذلك كله ما تراه اليوم من النهضة
 المستمرة في عالمي العلم والعمل

(ما هي الأصول الجديدة التي حملها الاسلام للأمم وتغلب بها على
 جميع الأصول الموجودة لذلك العهد ؟) الأصول العلمية والاعتقادية تتنازع
 الحياة كما تتنازعها الأمم فيغلب الأكل منها ما عداه ويبيده ويستولى على
 العقول والأرواح دونه ولا يزال سائداً حتى يأتي ما هو أكمل منه فيغلب
 عليه كما تغلب هو على ما سبقه وهلم جرا . هذه سنة الله في الأمم من يوم
 وجودها إلى اليوم

نعم قد يتغلب الباطل على الحق أحياناً ولكنه لا يتغلب عليه إلا إذا كان
 الحق قد ألبس لبوس الباطل وصار بما شيب به من الأضاليل أشد ضرراً
 من الباطل نفسه . أما ما دام الحق بديباجته الخاصة به لم تشبه شوائب
 الأضاليل فلا سبيل لأى باطل عليه مهما كان حوله وبطشه

فاذا قلنا جاء الاسلام فتغلب بأصوله على جميع الأصول التي كانت
 قائمة على عهده فمعنى ذلك أن أصوله كانت أكمل من تلك الأصول القديمة
 وأصلح للأمم منها

كانت في العالم مدينتان قائمتان قبل مجيء الإسلام وعلى عهده أجملها وأكملها كانت المدينة الرومانية ناهيك أنها تغلبت بها على دول الأرض فلم تبق فيها أمة تنازعها السلطان إلا دولة الفرس في آسيا وقد يتلو الناس تاريخ الرومان فيرون حروباً تشب وملوكاً تتولى ، وقوانين تسن ، وأصولاً تدعم وربما أكبر جهلة المؤرخين هذا الأمر وعدوه مما يصل إلى حد الخوارق ولكن لأهل العلم نظراً غير نظر الجاهلين فإن تلك المدينة الرومانية على ما ولدت من الأصول والقوانين ومصرّت من الأمصار وأقامت من الآثار كانت مطبوعة بطابع الوحشية وكانت في أكمل أدوارها بحاجة إلى التعديل والتقويم بل إلى قارعة سماوية تحل بها فتقلبها رأساً على عقب جاء في دائرة معارف لاروس ما ترجمته :

« ماذا كانت نظمات الرومان على وجه الاجمال كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين . أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجماعة فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية فكان لا يرى فيها إلا شرها مفرطاً وحققداً على الاجنبي وضياعاً لعاطفة الشفقة الانسانية . أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيوف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر » انتهى

نقول إذا كان هذا شأن الرومان في نظر العلم فشأن الفرس لا يحتاج لبيان فقد كانت القسوة والاستبداد الحكومي وتأله الاكاسرة وخطرة القادة فوق ما يتصوره العقل . فان كان الاسلام قد تغلب على الرومانيين والفارسيين فانه لم يغلبهم بقوة سلاحه ونظام جنوده ، لان السلاح والنظمات الحرية كانت من خصوصيات تلك الأمم ، ولكنه غلبهم بسلامة أصوله ،

واصله تعالىه . فماذا كانت تلك الأصول القديمة وما هي هاتيك الأصول
الاسلامية وكيف تغلبت الثانية على الاولى وانتهى الامر بأن قادت العقول
والأرواح معاً ؟

(الاصل الاسلامي الأول) التخليص بين الانسان وخالقه

كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة حتى في خطرات
نفسه وهو اجسها فلم يكن ليبرم أمراً أو لينقضه في شؤونه الخاصة أو العامة
إلا باقرار رجال الدين عليه . ولو وقف الامر عند هذا الحد لكان الحال
أشبه بتغلب طائفة على أخرى في الامور الحيوية ، ولكن الأمر المزعج أنهم
فصلوا ما بين الانسان ومبدعه وأقاموا أنفسهم وسطاء بينهما فما كفى الرجل
أنه لا يستطيع أن يبيع أو يرهن أو يتعاقد أو يموت إلا بحضور أحدهم حتى
حرموه أن يدعو ربه أو يتوب إليه من ذنبه إلا بوساطتهم . فكان الرجل
إذا أراد الزلفى من الله رشاهم وملاً أيديهم بالنضار فيؤذن له أن يتصل من
مولاه بسبب ، وان ضن عليهم وقبض يده عنهم أقصوه عن تلك الحضرة
وأوهموه أنهم حبسوا عنه رحمة ربه

بمثل هذه الايهامات تغلب رجال الدين على عقول الأمم فأصبحت في
أيديهم كالطفل في يد أمه وناهيك بما يستتبع هذه العبودية من وقوف حركة
الأفكار ، ونضوب معين العقول وتعطل حياة الشعور فلا جرم عاشت الأمم
دهورا طويلة وهي في حالة جمود شامل تحت آصار هذه الوصاية الثقيلة حتى
جاء الاسلام بهذا الاصل الأول وهو التخليص بين الانسان وخالقه ، فقرر
أن الله قريب من عباده يسمعهم ان نادوه ويستجيب لهم ان دعوه . فقال
تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان
فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » بل قرر الاسلام أن الله أقرب الاشياء الى عباده
فقال تعالى : « وهو أقرب اليهم من حبل الوريد »

ولم يشترط في قبول عبادتهم أن يرأسها شخص من طائفة تنحل نفسها صفة التوسط بين الناس وخالقهم فلكل إنسان أن يؤدي صلاته ونسكه بنفسه . أما الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة والعيد والجماعة فالذي يرأسها الأمير نفسه أو من ينوب عنه ولا يشترط في النائب والأمير أن يكون من طائفة خاصة بل يحزى في النيابة كل رجل من المسلمين ولو كان صانعاً أو تاجراً أو زارعاً

بهذا الأصل الإسلامي خالص ما بين الإنسان وربّه فلم يعد تابعاً لاحد من إخوانه في البشرية ولم ير لرجل مثله فضلاً عليه من وجهة روحانية . فكان هذا الأصل أول حجر وضعه الإسلام في أساس الحرية الإنسانية الصحيحة .

(الأصل الإسلامي الثاني) تقرير المساواة العامة . كان الناس قبل الإسلام ينقسمون إلى ثلاثة أقسام قسم رجال الدين وقسم رجال الحكومة ومن التحق بهم من الشرطة والجنود وقسم العامة . فكان رجال الدين هم الأعلى مكاناً ، والأرفعون مقاماً ، وكان رجال الحكومة يلوّنهم في الدرجة وكانت الطائفتان معاً عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما وابتزاز ثروتهما واجتياح ثمراتها لسد حاجة شهواتهما وتوفير لذاتهما الأولى باسم الدين وخدمة منزله والثانية باسم السلطة الدنيوية . فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم آدم وأمهم حواء . لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح فقال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » بهذه المساواة محيت السلطة الروحية التي طالما سامت الشعوب الخسف والبستهم لباس الذل . ولم يعد للكبراء والقادة ما كان لهم من مزاعم في احتكار السلطة وتوريثها آلهم وذويهم بغير حق ، وصار ميزان التمايز

الأعمال الصالحة ، والفضائل الحقة ، حتى اضطر أول خليفة ولى المسلمين أن يخطب الناس فيقول : « يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفاني هذا الأمر فلو وجدتم في اعوجاجاً فقوموه » فكان هذا الأصل ثانى حجر وضعه الاسلام في بناء صرح سلطة الأمة ارتفعت عليه الشعوب الى أعلى منصات الشعور بالكرامة الاجتماعية ، وبنت عليه ما قدر لها من معارج الصعود الى مكانات الرفعة القومية

(الاصل الاسلامى الثالث) تقرير مبدأ الشورى فى الحكومة . كان الناس قبل الاسلام يرون أنفسهم قد خلقوا لان يطيعوا طائفة الحاكمين طاعة عمياء ، ليس لهم من أمرهم حق النظر فى سلام ولا حرب أو فى ابرام ونقض ، فكانوا يسيرون كما تسير الانعام السائمة الى حيث يريدون ولا يريدون . وما تقرأه فى تواريخ الرومان واليونان من تكوين المجالس الشورية وتأليف النظمات الدستورية لم يكن فى حقيقته الا نوعا من الاستبداد فان السلطة فيها كانت لا تزال وقفا على أفراد من الاقوياء ، أما عامة الشعوب فكانوا على ما كانوا عليه قبل قيام تلك المجالس والجمهوريات لاحق لهم فى تقويم عوج الحاكمين ، وهل كانت المجالس الشورية فى أتيننا وروما الا من حظ طائفة الاشراف دون سواهم فتارة كانوا يستبدون بالناس جميعا وطورا يكونون آلة فى يد الحاكم الفرد يسوق العامة بهم الى حيث أراد ؟

فلما جاء الاسلام قلب هذا النظام رأسا على عقب وجعل لكل فرد حق الرقابة على الحكومة وابداء رأى فى الشؤون العامة فقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقال تعالى « وشاورهم فى الامر » . وزاد فجعل الدين النصيحة قال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولرسوله وللمؤمنين عامتهم وخاصتهم » وابتعد مرمى هذا الاصل فقرر أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من الواجبات على كل آخذه كبيرا كان أو حقيرا

حتى ان الله لما سرد بعض حوادث الامم الغابرة وذكر ما أصابهم من القوارع والمحن علل ذلك بقوله « انهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون » وقال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » وقال عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »

بهذا الاصل علم كل مسلم ان له حظا من ادارة شؤونه العامة فلم يعد يعتبر نفسه آلة في يد الرؤساء ، ولا جسما مهملا في بناء الاجتماع ، وناهيك بأمة ينبث مثل هذا الشعور العالي في جميع آحادها ، وتنتشر آثاره في حركاتها وسكناتها

(الاصل الاسلامي الرابع) تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الاخرى على الاعمال والصفات الذاتية ، لاعلى الشفاعات والقرابات

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون أن أمر العالم الروحاني بيد رؤساء الدين لا اراد لا رادتهم فيه ، فهم المسعدون والمشقون ، بأيديهم الاثابة بالجنان ، والخور والولدان ، أو العقاب بالنيران ، والتعذيب والحرمان ، فكان من لا يمت اليهم بنسب ، أو يتصل منهم بسبب يعتبر نفسه فاقداً مزية الخطوة بالحياة الأبدية فيعمل على استئزال رضائهم جهده بالمال تارة ، والطاعة العمياء أخرى حتى مرنت الشعوب بهذه الوسوس وصارت الذلة ألصق بها من أقرب غرائزها ففقدت نخوة الاحياء وعزتها ، وأصبح الآخذون بتلك الاديان كآلات الصماء في أيدي الرؤساء يرمون بهم حيث يشاؤون من متهات الوجود . ولا تسأل عما يلحق نفوسهم من الصفات ، ويلم بمواهبهم من الانحطاطات من جراء مثل هذه العقائد التي تربيهم أن الظلم والمحاباة من أخص صفات الحياة . فهل يستقيم مع مثل هذه الحال ميزان الاخلاق وينتظم شأن

المعاملات؟ وهل يكون مثل هذه الجماهير من الامم حظ من وجود عال في هذا العالم يرفعون به شأن الانسانية . أو يقومون فيه بخلافة الله في أرضه؟ جاء الاسلام فقرر أن مناط السعادة في الدنيا والآخرة الاعمال الشخصية وان القربات والشفاعات وجميع أسباب الزلفى من الرؤساء لا تغنى عن الانسان شيئاً . فقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال تعالى « ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى » وقال عن الذين لا يعملون صالحاً « فمالهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة الزهراء (اعلمي يا فاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئاً) وقد ورد في القرآن أن نوحاً شفع لابنه فلم يجبه الله لان ابنه كان غير صالح . قال تعالى في سياق تلك الحكاية « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلِكَ انه عمل غير صالح »

بهذا الاصل أجهز الاسلام على ما كان قد بقي من سلطة الرؤساء الروحانيين وزاد النفوس نزوعاً الى الخلاص من أسر المسيطرين . ولا تسلم عما استتبع هذا المبدأ من ادراك الانسان لمبلغ العهدة الملقاة على عاتقه ، ولحقيقة مركزه في مجتمعه وعالمه ، فكيف لا ينتج من هذا الشعور أصل الاعتماد على الذات ، والثقة بالقوى النفسية والاعتقاد بانها كافية في ايصال الانسان لارقي ما يتوق اليه من درجات السعادة المرجوة في هذه الحياة وما بعدها

(الاصل الاسلامي الخامس) الاعتراف بحقوق العقل والعلم

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون ان الدين والعقل نقيضان لا يجتمعان وعدوان لا يتفقان ، لما كانوا يرونه من الخلاف الشديد بين عقائدهم وعقولهم ، وقد غلوا حتى زعموا أن العقل أخط من أن يدرك العقائد في جلالها وسموها ، وزادهم رؤساء الدين ضلالاً في هذا الزعم بما كانوا يبثونه في أذهانهم من

أن حقائق الدين يجب أن تكون أرفع من مدركات العقل لأنها إنما تنزل عليهم من عالم روحاني يختلف في جميع شؤونه عن عالمهم الحسي وغاب عن تلك الأمم أنه لو صح هذا الزعم لصحت جميع الخرافات التي يدعي أصحابها بأنها أديان منزلة ولما استطاع انسان أن يميز بين غث وسمين مما يقدم إليه من مختلف المدركات ومتناقض المقالات

جاء في دائرة معارف لاروس من باب الازراء برؤساء الدين الذين يوهمون الناس بانحطاط العقل عن ادراك الامور الدينية ما ترجمته :

« إن قلنا الاحسان يقتضي اعتقاد الأشياء المعقولة قالوا لا لا . ثم يسعون في تدليل هذا العقل الانساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم ، حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات لأنها أمور عادية وتظن الأبيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا . نطيع من ؟ هل نطيع العقل ؟ الواجبات الطبيعية ، العواطف القلبية ، النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها ؟ لا ولكن أطع وأنت أعمى للذي يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل ميلكك أو أهلك أو باحداث مقتلة عامة فإنه ليس لك لاروح ولا ضمير إنما أنت ميت في الله » انتهى

جاء الاسلام فقرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وأنه قسطاس الحكم ، وفصل التفرقة بين المشتبهات ، فأكثر القرآن من ذكر العقل في مثل قوله (أفلا تعقلون) (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال عليه الصلاة والسلام (الدين هو العقل ولادين لمن لا عقل له) وقال (يا أيها الناس أعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه ، واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم) قال عليه الصلاة

والسلام : (لا يعجبكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله .) وأثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال لهم : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال « ان الاحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم »

لم يقف الاسلام عند هذا الحد في رفع قيمة العقل بل تحمله سلطته المطلقة في الحكم على العقائد فطالب كل معتقد بالدليل على حقيقة معتقده ، حتى ذهب جمهور من العلماء ان ايمان المقلد غير مقبول قال تعالى من باب المطالبة بالدليل : (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه) : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)

وقال من باب النعي على الآخذين بالظنون والاهام : (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ان الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) وقال سبحانه وتعالى : (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون)

ثم بين خطر الاعتقاد بدون عقل ولا علم وكشف عن عظم العهدة في ذلك فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً »

بهذا الأصل تحررت العقول من أسر العقائد الباطلة وظهر الدين لأول مرة مؤاخياً للعقل ، معتمداً به في تقرير المعتقدات ، وتحديد المعاملات . فكان هذا فاتحة عصر جديد دخل به الدين في مجال انقررات العلية بعد أن كان مطروحا في زوايا التوليدات الخيالية . ولا تسلم عما استتبع هذا الأصل من رقي الأمم في معارج الفهم ، وسموها في مراقي الفقه ووقوفها قوية عالية الرأس أمام أهل الخداع والمطامع من المتأولين للنصوص الدينية الذين يرمون لقيادة العامة بأهوائها ، وتسخيرها بأوهامها

قال لاروس في دائرة معارفه : « إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقي الذي حدث في العالم المادى والفكرى والخلفى منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا خلاص العقل من الضغط عليه »

وقال لاروس أيضاً في دائرة معارفه : « من لدن زمن الإصلاح لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محررى العقل وبين الضاغطين عليه من القدم ولأجل الاعراض السكى عن أساطير الماضى ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية فى ترميم ما تهدم من أركان الجماعة وصار تعليم النشء من أهم اشتغالاتها » انتهى

(الأصل الاسلامى السادس) المؤاخاة بين الدين والمدنية

الانسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع لأن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيعه من مال جسدى ولذة بدنية ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبيدات الوجود ومهلكاته ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول لأكثر رغائبه مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المقررة .

على هذا فطر الانسان وقد حقق لنفسه بعض هذه الامانى فى أزمنة مختلفة ولكن قادة الأديان لأجل أن يقبضوا على نواصى الأمم ويسخروها لأهوائهم خشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للانسان إلى التلصص من قيودهم والتخلص من سطوتهم فيضيعوا مكاناتهم الموهومة فزجوا بتعاليم الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة وحببوا إليهم الزهد والتقشف نعم أن الله أرسل بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق فى الدنيا ونعيمها ولكن كان ذلك لأسباب خاصة فى أحوال تقتضيها لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية ، وخصم للسعادة الجسدية

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك التعاليم فانحط أهله إلى أسفل الدركات وصاروا أضعف الناس في ميدان التغالب الحيوى ووقر في النفوس أن الدين ينافى كل عمل يؤدى إلى النعيم البدنى فنجحت الشبه والشكوك وتناقضت تعاليمه والفطرة البشرية . وتمسك قاداته بأصولهم فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقى وأصبح الدين فى أيديهم آلة للتعذيب والقهر وكانت الحرب سجالات بينهم وبين الدعاة للمدينة حتى تم لهم الفوز المطلق فنضبت موارد العلم ودرست أعلامه وأمسى العالم فى ظلام حالك من الجهل والعمى

ظهر الاسلام فقرر أن الدين ليس عدوا للمدينة بل هو دليلها الصادق ومرشدها الخبير فقال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال تعالى : (ربنا آتنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) وقال تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) وقال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك) ولما كان العامل فى إيجاد المدينة المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة فقال تعالى : (وقل رب زدنى علماً) وقال : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وقال : « من علم علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نار »

(الأصل الاسلامى السابع) تنبيه الانسان إلى أن للوجود الانسانى سنناً لا تبدل

كان الناس قبل الاسلام يتخيّلون أن الجماعات البشرية كقطعان السوائم تصرفها إرادة رعاتها وتقودها إلى حيث يتفق مع مصلحتها ، وما كانت

أدوار التاريخ في نظرهم إلا صنع الرؤساء والقادة يستطيعون تغييرها وتبديلها على ما تقتضيه سياستهم فكان نظرهم يتجه إلى أولئك الرؤساء كلها لاح لهم عارض مصلحة ، واستشرفوا بارق أمل ، ثقة منهم أن إرادة سادتهم كافية في تغيير كل حال أن هموا به وأرادوه . وفي هذه العقيدة من زيادة توريطهم في العبودية لهم ما فيه . فلما جاء الاسلام قرر أن للوجود الانساني سنناً لا تتحول ولا تبدل لا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية مما ترمى إليه . فالجماعات البشرية في مجموعها كائنات حية لها أدوار تأتي عليها وحالات تدخل فيها لكل دور منها شؤون ومقتضيات ولكل حال لوازم وعلاقات لا بد من ظهورها جميعاً كل في حينه المقرر له من سن الاجتماع وصفات الجماعات

هذا الخلاف في النظر بين القدماء والاسلام ذو شأن خطير في باب الحقائق العلمية ، وتأثير في التعاليم الفلسفية . فالقدماء كانوا ينظرون للقادة نظرهم للآلهة المتحكمين في إسعادهم وإشقائهم ، إرشادهم واضلالهم فكان هذا الضلال في العقيدة مكسباً وظائف أولئك القادة عظما وجلالا ، ونفوس تلك الشعوب حطة وإذلالا ولكن الاسلام يقرر أن الأمم وفي مقدمتها ملوكها منفعلون جميعا لقوى متسلطة عليهم تابعة لنا موس عام ينظم سيرها ويرتب أفاعيلها على حسب أحوالهم وبقدر استعدادهم وقابليتهم فهو ينظر في أمر إصلاح الأحوال وترقية النفوس لا إلى القادة المتسلطين لأنه لا يرى أن لهم حولا في أقل تغيير بل أنهم في حقيقتهم أثر من آثار الحال التي فيها الأمم . بل ينظر إلى ذات الأمم فينبهها لواجباتها ويزعجها إلى تلمس منجاتها بقواها الذاتية وإرادتها الشخصية

القرآن أثر من الزجر والوعظ والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام في واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة مثل قوله تعالى (يا أيها

الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) و(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) وما ذكر أولئك السادة إلا في معرض النعي على الأمم في استسلامها لضلال قادتها واهواء كبرائها فقال: (وقالوا ربنا إننا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) بل انه عدهم من آثار حيادها عن الطريق المستقيم كأنهم من كسب أعمالها، وثمره ضلالها فقال (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) ثم إنه لفت الناس لاستخدام قواهم المودعة فيهم إذا أرادوا تغيير أحوالهم، وتحسين شؤونهم فقال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

لا جرم أن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم إلى الطرق الحققة في حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها. فان الأمم متى عرفت أن بيدها سعادتها وشقاءها وأن أحوالها المختلفة من ثمرة أعمالها لم تعد تعتمد في تبديل شؤونها على غير جهادها وفي تكميل وجودها على سوى قواها الكامنة فيها الأمم المتشعبة بمثل هذا الأصل الاجتماعي يستحيل عليها الاستخذاء لعظيم أو الاعتماد على فرد مهما بلغ شأنه من شرف المولد وكرامة المحدث وناهيك بهذه النزعة سائقة إلى الحرية الصحيحة والديموقراطية الحققة من الآيات الدالة على ما ذكرناه من أن الاسلام قرر أن للوجود الانساني سنناً لا تتبدل قوله تعالى (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) وقوله تعالى: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

(الأصل الاسلامي السابع) لفت الانسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لاسرارها الخفية

حرم رؤساء الدين على الأمم النظر في الكون إلا فيما يمس العبادة ويتعلق بأداء واجباتها فرصد الآشوريون الأفلاك لمعرفة مواقيت العبادة.

وبرع المصريون الأقدمون في صناعة النقش والتصوير والنحت والبناء بسائق الدين أيضا لتصوير الآلهة وإقامة النصب لها وبناء الأهرام عليها وعلى الموتى وليس فيما بين أيدينا دين يدعو الإنسان للنظر في الطبيعة لدرس أسرارها واستكناه خاياتها ليستخدم ذلك في تحسين أحواله وترقية وجوده إلا الاسلام ، فانه لما جعل غرضه ترقية الانسان وإبراز قواد الكامنة فيه حرصه على النظر في الكون فقال : (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وقال : (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال : (إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الالباب) .

لا جرم أن النظر في الكون يستتبع استكناه نظامه ، واستكشاف أسرارهِ ولا يخفى ما في ذلك من الأثر البين في إقامة الأُمم على النظام . وتدريبها على محاكاة صنائع الله في الابداع والاحكام وقد عملت الامة الاسلامية الأولى بهذا الاصل فبرع منها ألوف من العلماء جعلوا لعلم الطبيعة شأنًا يذكّر في تاريخهم . ثم إنهم لم يتخذوه علما كلاميا نظريا بل جعلوه علما عمليا فاستخدموه في إبلاغ مدنيّتهم أوجا لم تصل إليه أمة قبلهم ولا يزال الاوريون يترجمون من كتبهم ما يقفهم على أن العرب بلغوا من العلوم الطبيعية شأوا لا يزال مداه مجهولا

(الأصل الاسلامي الثامن) الاعتراف بحقوق ميل الانسان وعواطفه في الانسان ميول مختلفة وعواطف جمّة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعتها فطرته لتكمّله في شخصه ونوعه وتوصله بما تنشئه له من الحاجات والعادات إلى أقصى ما قدر له من المدنية

فالانسان يميل لأجل حفظ شخصه للغذاء والكساء ولحفظ نوعه للزواج والاجتماع ولكنه بما رّب فيه من القوى المارقة لا يقف من هذه الحاجات

عند حد الضرورة فيميل لأن يفتن في نوع غذائه ولباسه ومأواه ولا يزال على تلك الحال وهو في كل اندفاعاته هذه يحصل من ورائها علما جديداً يبعثه لاستكناه مجهول ، واكتشاف سر ، وربما كان بعض افتنانه في الوفاء لميوله هذه جالباً عليه من مصائب تحتاج كثيراً من آحاده ولكن من يبقى منهم يستفيد منها رقياً جديداً لما يفتحه عليه الفكر من مجالات الحيل وباحات الوسائل .

على هذا فطر الانسان ومن هنا نشأت مدينته وعلومه وصناعاته وسيتأدى من هذا الطريق نفسه إلى كماله المنتظر الذي يعلو به عن مستوى الحيوان الأعجم كانت قبل الاسلام أديان تنزع إلى وقف تيار هذه الميول بتقرير صنوف الرياضات وأشكال الحرمان ومنها ماعدا الزواج دنسا من الأدناس ونظر إليه نظرة للشر الضروري فكان هذا النزوع من تلك الأديان سبباً لتعطيل قوى النفس الانسانية وصددها عن استخدام جميع وسائلها ومنع بذلك ظهور آثارها البديعة في عالم الحس . فجاء الاسلام معترفاً بحقوق هذه الميول الطبيعية غير مطالب الانسان إلا بخصلة واحدة وهي الاعتدال فيها على حد قوله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) حتى أنه لم يحرم عليه الدفاع عن نفسه بالقوة والتبسط في استعمار الأرض لعله بأن الحرب كانت لدى بعض الأمم من الحاجات التي لا غنى لها عنها وهي تحتاز دوراً من أدوار الاجتماع فطالب ذويه بالعدل فيها . وعدم الايغال في اشباع عاطفة الانتقام فقرر أولاً ضرورة الدفاع بقوله : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ثم فص على وجوب الانصاف فيها فقال تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)

بهذا الأصل حفظ الاسلام لمتبعيه جميع صفات الأمم الحية المستاهلة للتدرج في مراقى السكال البشرية . ولو كان العرب الأولون أمروا بصدم

هذه الميول الطبيعية بالزهد والتقشف وحرمت عليهم جميع مقومات الاجتماع من مقابلة القوة بمثلها لما كان من أثره إلا تكوين جماعة من المتبتلة يعيشون ضعافا ويموتون أسرى سواهم من المتغلبين ، ولما قاموا بهذه الأعمال الجليلة من بناء مدنية فخمة وإقامة دولة عظيمة وحفظ ميراث العالم من العلم والحكمة ولا تنهى أمرهم كما انتهى أمر كل طائفة مستضعفة مستكينة

اعتبر بعض الطاعنين في الاسلام إباحة الحرب والتنازع من العيوب التي يجب أن يخلص منها كل وحى إلهى وغاب عنه (أولا) ان شريعة موسى كانت تبيح الحرب والتنازع على أشد درجاتهما حتى ورد في التوراة أن موسى كان إذا غلب الأمة اجتاح أهلها ولم يبق حتى على حيواناتها وشريعته مع هذا معتبرة من الوحي لدى أكثر الطاعنين على الاسلام من هذه الوجهة (ثانياً) أن الحرب مظهر من مظاهر التنازع المعاشى وهذا التنازع لا يزال سنة إنسانية يسوق إليها فساد في بنية الاجتماع ، فاذا حرمه الاسلام حرم ذويه الدفاع عن أنفسهم وبلادهم وقضى عليهم بالتلاشى والزوال . لأننا لا نزال نرى بأعيننا أن الأمم في نزاع مستمر وان مدار الفوز فيه على القوى المسلحة وأن الحياة هي للحاصل على جميع أسباب الدفاع عن الحوزة

(الأصل الاسلامى التاسع) توحيد العالم في دائرة المعاملات

يلاحظ الناظر في الأديان السابقة على الاسلام أن الأثرة القومية ظاهرة في تعاليمها ظهورا بينا وكثير منها حرم التعدى على الآخذين بها وأحله لمن عداهم من سائر الأمم . من هنا حدث التضامن والتغابن بين أهل الممالك المختلفة وورث الناس هذه الأخلاق جيلا بعد جيل حتى ليكاد أحدهم يفضل أن يرى الحيوانات الكاسرة ولا يرى وجه رجل يخالفه في معتقده

لا جرم تأثرت المعاملات بين هذه الأمم المتخالفة في العقائد على نسبة قوة هذه التعاليم الصارة ومبلغ تأثيرها على أذهانهم فتعطلت المصالح المادية

وكثرت الغارات الجائرة . ونزع بعضها لآبادة بعض لا لغرض سوى تطهير الأرض منها .

ولكن الاسلام لم يسلك هذه السنة بل رمى إلى توحيد العالم كله في دائرة المعاملات الحيوية تاركا لكل أمة حريتها في اعتقاد ما تريده من العقائد . فقرر لمتبعيه من هذه الوجهة أصولا فقال لهم ان اختلاف الأمم والنحل في الاعتقادات أمر يقتضيه نظام الكون وأنه مراد الله تعالى وأنه من المحال جمع الأمم على عقائد واحدة فقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)

علم المسلمون بهذه الآية أن هذا الخلاف مراد الله تعالى لحكمة يعلمها هو وان الأمم لا تزال عليه حتى يأتيها أمر ربك فلم تغل مراجل الاحقاد في صدورهم ولم تلتهب جذوة الاضغان في نفوسهم بل تركوا ما لله الله وعملوا بقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم أن تبزوهم وتقسطوا إليهم)

أمر الله متبعي الاسلام بهذه الآية أن يبرروا ويقسطوا الى الاجانب عن دينهم الذين لم يقاتلوهم من أجل ملتهم ولم يخرجوهم من ديارهم . ثم أيد ذلك بقوله تعالى بعد هذه الآية . (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون)

بهذه الآيات لم يجد المسلم في نفسه ما يجعله على الحق على مخالفه في الدين مادام لم يقاتله ليفتنه عن دينه ، بل إنه أمر بأن يعدل في معاملته وبأن يبره والبر فوق العدل لانه يقتضى التفضل والاحسان .

وقد دل تاريخ المسلمين في جميع أدوارهم على تأصل هذه النزعة في نفوسهم فلم يرو عنهم أنهم أبادوا ملة من الملل لغرض ديني ، أو اضطهدوا

طائفة من الطوائف بقصد اعتقادي بل سمحوا لجميع محكوميههم بممارسة أديانهم وتعليمها لذويهم وكانوا يحترمون آحادهم وجماعاتهم احترام العشير للعشير ولم يمنعوا نواقيس الكنائس والبيع أن تدق بجانب منائر المساجد وزاد الاسلام هذه العلاقات بالسماح للمسلمين بمؤاكلة مخالفيهم ومجالستهم ومؤاساتهم في حزنهم ومشاطرتهم في فرحهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة أمته في ذلك فقد روى عنه أنه نشر رداءه وأجلس عليه بعض زائريه من النصارى وثبت أنه كان راهناً درعه عند بعض يهود المدينة في دين عليه ولم يخلص درعه إلا خلفاؤه بعد موته . وزاد الاسلام هذه العلاقات فأباح مصاهرتهم ولولا أنه خشي على النساء الفتنة لكان أباح أن تتزوج المسلمة من غير المسلم

لاجرم نشأ المسلمون نشأتهم الأولى والدين أقوى حاكم على شعورهم فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم ، ثم لما انتشر فيهم العلم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه النزعة فيهم أدنى انحراف بل زادوها رونقاً بما قاموا به من حماية علماء الملل الأجنبية وما والوه عليهم من الاقبال والاجلال حتى صار أطباء الخلفاء والقادة منهم مثل بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون وغيره بين نصارى واسرائيليين لا يعدون كثرة .

هذا الاصل الاسلامي يعتبر في ذاته آية على حقية هذا الدين فان هذا التسامح الديني لا يكاد يعرفه العالم إلى اليوم وأن أوروبا الحالية على ماحصلته من علم ومدنية لا يزال يرى منها جنوح عن مثل هذا المبدأ الكريم في أحوال كثيرة

(الأصل الاسلامي العاشر) الاعتراف بناموس الترقى
ليس فيما بين أيدينا من الأديان التي سبقت الاسلام دين يرفع بالرقى

الإنساني رأساً أو يأبى بمحصول الناس على ما ينفعهم في أمر حياتهم الدنيوية وكل ما فيها أنها علقّت أمر الدين كله على حادثة تاريخية أو موت زعيمها على شكل من الأشكال فهي تنظر للوراء في جميع أوامرها ونواهيها بل طبيعتها تقتضي أن يكون الإنسان بقلبه وشعوره ومراميه من أهل العصور الأولى، ولا بأس عليه بعد ذلك أن كان من حياته هذه في أخس دركات القسوة والمهانة

لا جرم سادت هذه الأديان قروناً فلما ولد العلم وتأيدت دولته زالت من على سطح الأرض ولولا أوقاف محبوسة على قادتها لما وجدت لها ممثلاً في بلد متمدن اليوم

ولكن الإسلام خالف جميع هذه الأديان في اعترافه بناموس الترقى واعتباره الإنسان مسوقاً لغايات من المدنية بعيدة لم ينلها إلى اليوم . وهو لأجل تقرير هذا الأصل في أذهان متبعيه قطع كل علاقة بينهم وبين الأمم السابقة إلا من وجهة تاريخية فلم يعلق تعاليمه على حادثة ماضية ، ولم يبن أصوله على أمر سبق الزمن الذي نزل فيه بل قال عن العلاقة الموجودة بيننا وبين الأمم السابقة : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

قطع الإسلام بهذه الآية وأمثالها كل علاقة لهذه الأمة بما قبلها من حيث العقائد وقرر أن لكل أمة ما تكسب لا تسأل سابقها عن لاحقها ولا لاحقها عن سابقها

ولما كان ناموس الترقى في نفسه ليس له مظهر إلا تقدم الإنسان في باحات العلم ومن هذا التقدم العلمي ينشأ التقدم الأدبي والمادى بجميع أشكاله قرر الإسلام أن العلم الذي لدى الأمم لذلك العهد نزر قليل لا يوصل إلى إدراك كبريات المسائل ولا يحل معضلات الأمور فقال تعالى : (ويسألونك

عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (بعد أن قرر أن العلم الذي أوتوه قليل أراهم أن العلم دائم التجدد متواصل المدد فقال تعالى (وقل رب زدني علما)

هذا الأصل يعتبر اعترافا صريحا بناموس الترقى وقد حقق المسلمون مؤداه فانهم لم يقصروا في طلب العلم في عصر من عصورهم بل هبوا هبة رجل واحد فأخذوا كل ما رأوه من علم نافع وصناعة محكمة وجمعوا بين مظاهر مدنيات الفرس والرومان واليونان والهنود

(الأصل الاسلامي الحادي عشر) تقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله

غرس الإسلام في نفوس ذويه أنه إنما شرع لمصلحتهم ، وأنزل لترقيتهم وما العبادات التي فرضها الله على عباده ، والسنن التي أمر بها نبيه إلا وسائل لفوائد روحانية تأتي من ورائها وليست هي ذاتها مقاصد تطلب لنفسها ، بمعنى أن الصلاة وما ركبت منه من ركوع وسجود وما يسبقها من وضوء لم تشرع لذاتها بل لما تستتبعه من الفوائد الروحانية والامدادات الربانية وكذلك كل العبادات المشروعة والمناسك المفروضة قال تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال في بيان حكمة تشريع الصلاة : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال في بيان حكمة الحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله)

أين هذا من قوم يعتقدون إن الدين لم ينزل إلا لتسخيرهم وإذلالهم . وإن الله يود منهم هذه العبادة لذاتها لا لنفع الانسان من طريقتها . لا جرم أن مثل هذه الأمم تعتبر الأديان عبأ ثقيلا . فلا ترى مندوحة للتخلص منها وإلقاء نيرها إلا املتست منها مسنهة حلوم الذين تمسكوا بها ، زارية بعقوفهم في تعويهاهم عليها

(الأصل الاسلامي الثاني عشر) حرية البحث والنظر

أباح الاسلام لمتبعيه البحث والنظر في الاصول الدينية ناهيك أنه طالب المتمسك بالدليل، وكره الايمان بالتقليد فكانت هذه الاباحة فاتحة رقى كبير في الأفكار وثمراتها إذ لا يخفى أن الحرية في البحث تؤدي الى تحاك الآراء، وتنازع الافهام فتتجلى الحقيقة من خلال هذه المنازعات الأدبية بل تتأدى العقول الى باحات لاحد لها من العلوم الاجتماعية التي عليها قوام الجماعة وحياة الأمة لاجرم لم يلب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة ربه وينقطع مدد الوحي حتى أخذ المسلمون يعملون بهذا الاصل في فروع العبادات ونظام المعاملات فنشأ الخلاف في الآراء. ولكنه كان خلافا سليا محضاً إذ كان الجميع يستندون على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فكان المتخالفون يعرض بعضهم آراءه على البعض الآخر فيحصى بينهم وطيس الجدل فان أقام أحدهم الحجة على أخيه صرفه عن رأيه والا بقي الاثنان على رأيهما، لا يؤديهما خلافاهما الى المنابذة والملاحة

نشأت من هذه الاباحة في البحث ميول أخرى كلها كانت ذات فائدة في ترقية الأمة، ودفع الجمود الفكري عنها مثل الميل لتمحيص الأحاديث ومعرفة صحيحها من موضوعها والنظر في التفسير وجمع الآراء المتباينة فيه، ونقل اختلاف المأولين لمعانيه والجرى وراء استيعاب اللغة ليفهم على وجهه الحق وغير ذلك فلم تمض مائة سنة حتى رأينا المذاهب تعد بالعشرات في الفقه وفروعه وإذا كان قد بقي منها أربع فما ذلك إلا لكثرة أتباعها وانتشار زعمائها في أرجاء الأرض

وإذا كان المسلمون قد وقفوا من البحث عند هذا الحد وقنعوا بما جاء به أولئك الأربعة الكرام فليس ذلك لأن طبيعة الدين الاسلامي تستدعيه ولكن لتقصير المسلمين في النظر وقصورهم عن لحاق شأو الاقدمين في العلم

وهو تقصير وقصور رأوا تتأججهما الوخيمة وسيرونها ماداموا ملتائين بهما
ونما يدل على أن وقوفهم عند هذا الحد تقصير ان اولئك الائمة الاربعة
لم يحتموا على الناس الاخذ بمذاهبهم ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس
الحاجات اليه في كل زمان ومكان بل اعترفوا بأن ما جاؤا به هو أقصى
ما قدروا عليه وحظروا على متبعيهم الاخذ بما قالوا إلا بعد الفسك في أدلتهم
عليه فقال الامام الاعظم ابو حنيفة « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى
بكلامى » وكان إذا أفتى يقول « هذا رأى أبى حنيفة وهو أحسن ما قدرنا
عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب »

وكان الامام مالك بن أنس إذا استنبط حكما يقول لأصحابه « انظروا
فيه فانه دين وما من أحد إلا وماخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب
هذه الروضة » يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال الامام الشافعى للربيع : « يا أبا اسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول
وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين »

وقال الامام احمد بن حنبل : « أنظروا فى أمر دينكم فان التقليد لغير
المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة »

هذه أقوال الائمة الأربعة أنفسهم ومنها يتضح أنهم أفتوا بحرمة تقليدهم
لمن لم يعرف دولتهم وقد استحال أمر المسلمين اليوم من الجمود أنهم يلومون
من يسأل عن أدلة المجتهدين ويدعون أنه يجزىء أحدهم أن يفهم من أقوالهم
أو من أقوال تلاميذهم

أنظر لهذه الاباحة التي قررها الاسلام للنظر وتأمل فى أديان سبقتة
كان قادتها يحرقون بالنار كل من يتجارى على فهم يخالف فهمهم ثم قارن
بين أئمة هذا الدين فى تحريمهم الاخذ بأقوالهم بدون نقد وبين الحظر العظيم
الذى كان يصدر من قادة تلك الأديان على الناس أن ينظروا فيما يصدرونه

من الأوامر مدعين أنها والأوامر الإلهية في مستوى واحد ، يجب أن تترفع
عن كل نقد وتمحيص

هذه هي الأصول الاثني عشر التي نراها من خصوصيات الاسلام قد
غالب بها جميع العقائد التي كانت منتشرة على عهده فغلبها وحل من النفوس
والعقول محلها ولا يزال يحل بما بقي منها في أعماق الصدور ويختلط بهوى القلوب
كل ما في الانسان من تعاليم إنما تتفرع عن هذه الأصول وتشتق منها
كاحترام الغرباء والحنان على الاسراء وصيانة حقوق الضعفاء

(لماذا انخط المسلمون وفيهم هذه الأصول ؟) إن هذه الأصول الاثني
عشرة التي قررناها تصلح لاقامة أكرم مدينة في العالم وتؤلف أشرف مجتمع
فيه بل هي أصول تدأب العلوم الكونية والاجتماعية على غرسها في النفوس
وتعد نفسها من أجلها أرقى من أرقى فلسفة في المتقدمين ، فلماذا انخط المسلمون
وهي أصولهم المقررة في دينهم ، وبأى علة تدهوروا في تيهور الاضمحلال
وأصبحوا حيارى لا يجدون مخلصا مما وقعوا فيه ؟

الجواب ليس بالأمر الصعب . ذلك إنهم انحرفوا عنها ، وتسكبوا طريقها
بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداة وعملوا على خلافها جهد طاقتهم
كأن حظهم من الدين استحال إلى مناقضتها والعمل بما يعاكسها .
واليك التفصيل :

قلنا إن أول الأصول الاسلامية التخليص بين الانسان وخالقه ، فهل
بقي المسلمون على هذا الأصل ؟ لا

أنهم اتخذوا قبور صالحهم قبلة يتوجهون إليها وبنوا عليها القباب واتخذوا
فوقها المقاصير ورفعوها عن الحد الشرعي ووضعوا عليها العمام وأشعلوا
فيها السرج وقد ورد في السنة النهي بالنص الصريح عن إدخال القبور في
المساجد وعن إيقاد السرج عليها ، حتى لا تفتتن العامة فيعبدها ويتخذوا

من فيها وسطاء بين الله وبين عباده . فترى دهاء المسلمين اليوم لا يدعون الله وحده ولا يرفع أحدهم يده إلا مستشفعاً واحداً من أولئك الصالحين ومتخذاً إياه وسيلة إلى الزلفى من محالقه

نعم إن المسلمين لم يصلوا من هذه الوجهة إلى مثل ما وصل إليه سابقوهم من أهل الملل الأولى ولكنهم حادوا عن أصلهم الأول بما لا يتفق مع روحه الخالصة النقية وزادوا انحرافهم ضوضاء بما يتخذونه من الاحتفالات حول تلك القبور فيما يسمونه بالموالد فتراهم شيعاً متحلقين إلى حلقات يذكرون الله بأصوات منكرة وبالفاظ لا تفهم صاحبين مصنفين متميلين مضطربين فاذا فرغوا من ذلك ساروا في الطرق حاملين الرايات والطبول وطافوا شوارع المدينة على حال لو رآها النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد خلفائه لحدهم عليها حد المشاغبين ، المتلاعبين بالدين

يحصل كل هذا والعرفة بحقيقة الدين يملئونهم عليها ويمدونهم فيها ، بعضهم جراً لمنفعة تلحقه منهم ، والبعض الآخر تقصيراً منه في أداء وظائفه والحكومة لا تستطيع أن تمتد إلى أولئك المتلاعبين يدا مادام حفظة الدين أنفسهم يقرونها ويعملون على تأييدها

بهذا الانحراف انحرفت القلوب عن حكمة ذلك الأصل الكريم ، ولم تعد تستفيد من آثارها عليها ، وظهر المسلمون من هذه الوجهة بمظهر الأمم المتبربرة الذين جاء الاسلام بالنعى عليهم والأخذ على أيديهم

أما الأصل الاسلامى الثانى وهو المساواة العامة فقد صدف عنه المسلمون أيضاً فقسموا الناس قسمين قسم سموهم رجال الدين وقسم سموه أهل الدنيا فابقوا الأولين حيث هم قطعوهم عن الاعمال الدنيوية وقصروهم على خدمة المساجد وتعاليم الدين ليس فى طبيعة الاسلام ما يسمح بوجودهم فلم يبلغوا شأؤ نظرائهم فى الملل الأخرى لا من ناحية التأثير على الارواح ولا من

جهة قيادة العامة وتوالت على المسلمين حكومات أقرت هذا التقسيم وأمسكت يدها عن ترقية شؤونهم فبقوا حيث كانوا منذ مئات من السنين يعتبرون من جهة أئمة الدين وحملة شرائعه وليس لهم من جهة أخرى ما لغيرهم من السلطة فصار هذا التقسيم أضر على المسلمين مما كان منه في الامم السالفة ، لان تلك الامم كانت فيها وظائف رؤساء الدين منصوصاً عليها في ذات الدين فلما نشأت السلطة الدنيوية وقويت شوكة الشكوك وتنازعت السلطان قياد الامم حصلت تلك الامم من ذلك التنازع تجارب نفعتها في تحديد السلطة الدنيوية ووردها إلى ما يوافق مصلحتها فيما بعد ولكن نشأ هذا التقسيم في المسلمين ضد طبيعة الدين بمحض ارادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال الدين دائرة اختصاص يدافعون عن حدودها وكانوا طول عهدهم العوبة في يد القادة الدنيويين فلم تشعر الامة من وجودهم إلا برؤية ذواتهم ونم تتدافع الطائفتان لتعلم بتدافعهما موضع مصلحتها منهما فلم تستفد مثل ذلك الدرس الاجتماعي الذي أخذته الأمم الأخرى ولم تنهياً في وقت من اوقاتها لأحداث مثل ما أحدثته من الانقلابات العمرانية التي كان لها أكبر أثر في انتظام شؤونها القومية

أما من جهة الأصل الاسلامي الثالث وهو تقرير مبدأ الشورى في الحكومة فقد انحرفت عنه الامة من زمان بعيد أي من عهد معاوية بن أبي سفيان حين ناهض الخليفة الرابع ولم يعبأ باجماع أهل الحل والعقد في إسناد الخلافة إليه فأدرك بالقوة القاهرة لتحقيق أمانيه وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح وعهد بالأمر لابنه يزيد وأخذ له البيعة بالأرهاب والرشا فأعطى السيف من استعصى ، وبذل المال لمن مد يده ، حتى استتب له الأمر فنجمت نواجم الفتن الداخلية فخرج عليه الحسين ابن علي بن أبي طالب بالكوفة وعبد الله بن الزبير بمكة ونشبت الحرب الاهلية ثم

استقر الأمر لبني أمية حيناً من الزمان ثم ظهر دعاة بني العباس فأوغلوا في خصومهم قتلاً وسفكاً حتى أسندوا الأمر لأنفسهم فذهلت الأمة عن وجودها بهذه الحروب المتوالية واستكانة للغالب الفاتح وأخطأ العباسيون في إحاطة أنفسهم بشذاذ الآفاق من الأتراك فصارت الخلافة العوية بأيديهم وقامت في كل صقع من أصقاع المملكة دولة يرأسها متغلب مغتصب وصارت البلاد بين تأثيرهم في معارك مستمرة حتى سطا عليهم المغوليون فأسقطوا الخلافة العباسية التي لم يكن لها حظ من هذه الوظيفة غير الاسم فضاع أصل الشورى واستحال الأمر إلى الاعتماد على القوة وعجز المركز العام عن حفظ وجوده فلم تقف المطامع عند حد واستمر المسلمون في حركتهم القهقرية حتى ورث الغرب أكثر أصولهم فاشعروا إلا وهم محاطون بالامم الاستعمارية من كل مكان .

أما من جهة الأصل الاسلامي الرابع وهو تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفاء الذاتية لا على الشفاعات والقرابات فقد كابد عين الانحراف الذي كابدته ما تقدمه من الأصول . ذلك أن دهما المسلمين بما تأسروا به من مطالعة الكتب التي وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل وقر في نفوسهم أن المسكانات الآخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية والهمهمة ببعض الألفاظ وقد نقل أولئك المؤلفون من الأحاديث الموضوعة والآثار المكذوبة ما يكفي لتضليل العقول عن الحقائق الروحانية المقررة

انتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهبت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحاني تصويراً خيالياً وجعلت زمامه بأيدي أفراد من المقربين حاكمه بأن من انتمى إليهم فاز بالخور والجنان ، ولو كان

عليه من الذنب ما أتعب الملكين ، وإن من فاته اللياذ بهم ، فاته الخير كله
 ووكل إلى نفسه . فمالت نفوس العامة إلى هذا التمويه ونسوا قوله تعالى :
 (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به) وضاع
 في نظرهم معنى الثواب والعقاب في الآخرة واضطرب في وهمهم ميزان العدل
 الالهى فبطلت حكمة الترغيب والترهيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها
 المقصودة منها واستحال الأمر إلى أمان كاذبة ، وأوهام باطلة ولا تسل
 عما ينبنى على هذا الضلال من ضياع حكمة الدين وخروج أهله عن سننه القويم
 أما من جهة الأصل الاسلامى الخامس وهو الاعتراف بحقوق العقل
 والعلم فقد لقي من أعراض المسلمون ما لقي سابقوه من الأصول كيف لا وقد
 راجت فيهم الحكايات الميتلوجية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الاولين
 وخرافاتهم ، وما رووه عن الأفراد منهم فانحطت قيمة العقل واتسعت
 أمامهم دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات ، واستعدت الأذهان لقبول
 كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة ثم زادوا في هذه الطريقة غلو
 فخرموا الاعتراض ما يروى من تلك المناقضات للعقل ، وأوعدوا من
 يتجارى على تكذيبها بالحرمان من الرحمة الالهية والاستهداف لسوء الخاتمة
 فلم يبق للآيات الداعية إلى تعقل الأمور وتدبرها بعين النقد أثر في نفوس
 المسلمين وتبع ذلك ما يستلزمه من انحطاط مداركهم ووقوفهم موقف
 العاجز أمام الحقائق الساطعة

أما الأصل الاسلامى السادس وهو المؤاخاة بين الدين والمدنية فقد
 انحرف به المسلمون انحرافاً يناسب انحرافاتهم في كل ما عداه فان الحروب
 التي وقعت بين أمراء المسلمين في القرن الثانى وما يليه صرفت الأذهان عن
 نعم الحياة الارضية ولفتها إلى ما أعد لها في الحياة الاخرية . فراجت
 الكتب الزارية على الدنيا ، الناعية على أهلها ولوعهم بها ، وأكثر المؤلفون

من إيراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والاقبال ، وإن كان مثل هذا الزهد القسري لا يعد فضيلة فاكسبت نفوسهم صفات المستخزين من الأمم واطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من فائنات النفوس وقاطعاتها عن كمالها فلما ظهرت لهم المدنية الأوروبية بما حملت من سحر وابداع صرحوا بأن لهم الأخرى ولغيرهم الدنيا وأصبحت تلك عقيدة بعضهم لليوم . وفي هذا التصريح ما فيه من إعطاء الدنية والاقرار بالعجز والركون للسكينة

أما الأصل الإسلامي السابع وهو تنبيه الإنسان بأن للوجود الإنساني سننا لا تبدل فقد انقلب في نظر المسلمين إلى ضده ، لأنهم لما اعتمدوا في حياتهم على الأوهام والأمانى وعولوا في تصرفاتهم على الخرافات والاضاليل الموضوعة ذهلوا عن النظر للواقع المحسوس وشغلهم الطيران في جواء الخيالات ، عن التدبر في الحقائق الراهنة فلم يتجرؤوا الأسباب ، ولم يتلمسوا وجوه النجاة وكأنه وقر في نفوسهم أن تبدل حالهم إلى أحسن حال يجرى بمحض الدعاء أو بحادثة غير منتظرة ، فتراهم كلما ألم بهم ألم من حال نظروا إلى السماء ولم يزدوا عن الحوقلة والاسترجاع فراجت عليهم الكتب الرمزية الدالة على مستقبل الحوادث كالجفر واعتمد ملوكهم على حركات الأفلاك فاسترشدوا بالمنجمين واستهدوا بالمضللين من المتنبيين فضل سعيهم في الحياة الدنيا . فلما احتك بهم الغريبيون وجدوا منهم أمماً على غير هدى لا بصيرة لها بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم ولولا أن الاستعمار العصري ترقى أساليبه وصار للعدل فيه حظ كبير لبادت أكثر الأمم الإسلامية كما بادت أمم أمريكا الشمالية والجنوبية تحت سيطرة المستعمرين

أما الأصل الإسلامي السابع وهو لفت الإنسان إلى نظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية ليستفيد منها لتغذية روحه وعقله ونظامه الاجتماعي

فقد حاد عنه المسلمون إذ قصرُوا العلم عن العلوم الكلامية وصار كل اهتمامهم في المجهودات العقلية موجهاً إلى تفهم كلام الأقدمين ، وباليتم توسعوا في هذا الباب فجمعوا كتب آبائهم في الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك وجعلوا لها حظاً من عنايتهم بل اقتصروا على علوم الكلام وتفرغوا لها فصاروا غرباء حتى عن تحقيقات أسلافهم في الكون فلم ينبغ فيهم واحد كابن سينا أو ابن رشد أو الفارابي وانحطت مدركاتهم على الكون حتى لم يعد فيهم من يبحث عن قوى أجسادهم وطبيعة أرضهم وما برح الانحطاط أخذاً مجراه حتى جاءتهم العلوم الأجنبية بلغاتها العجمية فظنوها ككفرأ فتألبوا على معارضتها وأصبح علم الطبيعة في نظرهم من الرجس الذي لا يصح أن يقربه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر . فتأمل رحمك الله في هذا الانحراف عن سنن القرآن وأصول الاسلام وقل لي إلى أي حضيض لا تسقط المجتمعات الاسلامية من الانحلال وفساد الكيان

فبينما نرى الامم قد وصلت من العلم الطبيعي إلى حيث يستخدمون قوى الماء والهواء فأصبحوا يقطعون القفار المترامية الاكناف في الساعات المحدودة ويخلقون في الجواء إلى أبعد مما تصل إليه النصور والعقبان ، تجد المسلمين لا يزالون من علومهم الكلامية في حال مقيم مقعد . وقد أدركهم الانحطاط في ذات تلك العلوم ففنعوا من كتبها بما لا يوصل إلا إلى انضاب معين القرائح ووقف حركة الافكار

أما الاصل الثامن وهو الاعتراف بحقوق ميول الانسان وعواطفه فقد خبطوا فيها على غير بصيرة تبعاً لانحرافهم في الاصول السابقة وهل يميز بين الميول الحققة والوهمية ، وبين العواطف الحسنة والرديئة إلا العاظمون بأسرار العلوم النفسية وأنى لهم ذلك وتلك العلوم فرع من العلوم الطبيعية وهي قابلة للترقي إلى غير حد وانى ليؤلمني أن أذكر أن ليس في معهد من معاهد العلوم

الإسلامية من يدرس هذا الفرع العلمي أو من يدور بخلده أنه من المعارف الضرورية .

أما الأصل الإسلامي التاسع وهو العمل على توحيد العالم في دائرة المعاملات فقد أصابه ما أصاب سائر الأصول إما من عدم الباحثين في هذا الأمر أو لعدم إمكان تنفيذه بما دخل فيه المسلمون من الجمود فانهم لذهولهم عن جميع أصولهم المحيية صار أمرهم ليس في أيديهم وأصبحت شؤونهم الخاصة والعامة تبعاً لشؤون سواهم ، فسواء بحثوا في مثل هذا الشأن أو لم يبحثوا فيه فليس لهم حول على عمل تملية عليهم الفكر الناضجة والآراء الأصلية فالمسلمون اليوم إذا كانوا لا يبحثون هذا التوحيد في حدوده الحافظة لوجودهم فهم مقودون قسراً للفناء في أجساد الأمم المحيطة بهم

أما الأصل الإسلامي العاشر وهو الاعتراف بناموس الترقى فقد كابد إنحرافاً عظيماً فالمسلمون بحالهم وقالهم اليوم يميلون للرجعى إلى دور من أدوارهم الماضية فقادة أرواحهم يحملون باعادة مثل عصر بنى العباس أو سواه مما تكون المدنية الإسلامية فيه بلغت شأوها إلا بعدوهم مع محاولتهم الرجعى يعملون على عكس الأصول التي رقت تلك الدول ، فان أسلافهم في العصر العباسى نهضوا نهضتهم من طريقها الطبيعى فترجموا الكتب الطبيعية التي كانت لليونان والفرس والهنود الى لسانهم وأخذوا في دراستها وتفهمها حتى برعوا فيها ولم يكفهم ذلك بل رحلوا الى بلاد تلك الأمم وتعلموا لغاتها وبحثوا في مجتمعاتها ونقبوا في آثارها وتعرفوا نباتاتها وحيواناتها ونقلوا لبلادهم كل ما توسموا فيه الفائدة والمصلحة ولكننا اليوم نتمنى الرجعى الى مثل عهد من عهودنا السابقة ولم نعمل في هذا السبيل عملاً يؤدي اليه كأنا نزعم أن ذلك يتم بمجرد تمنيه

أما الأصل الإسلامي الحادى عشر وهو تقرير أن الدين انما شرع لفائدة

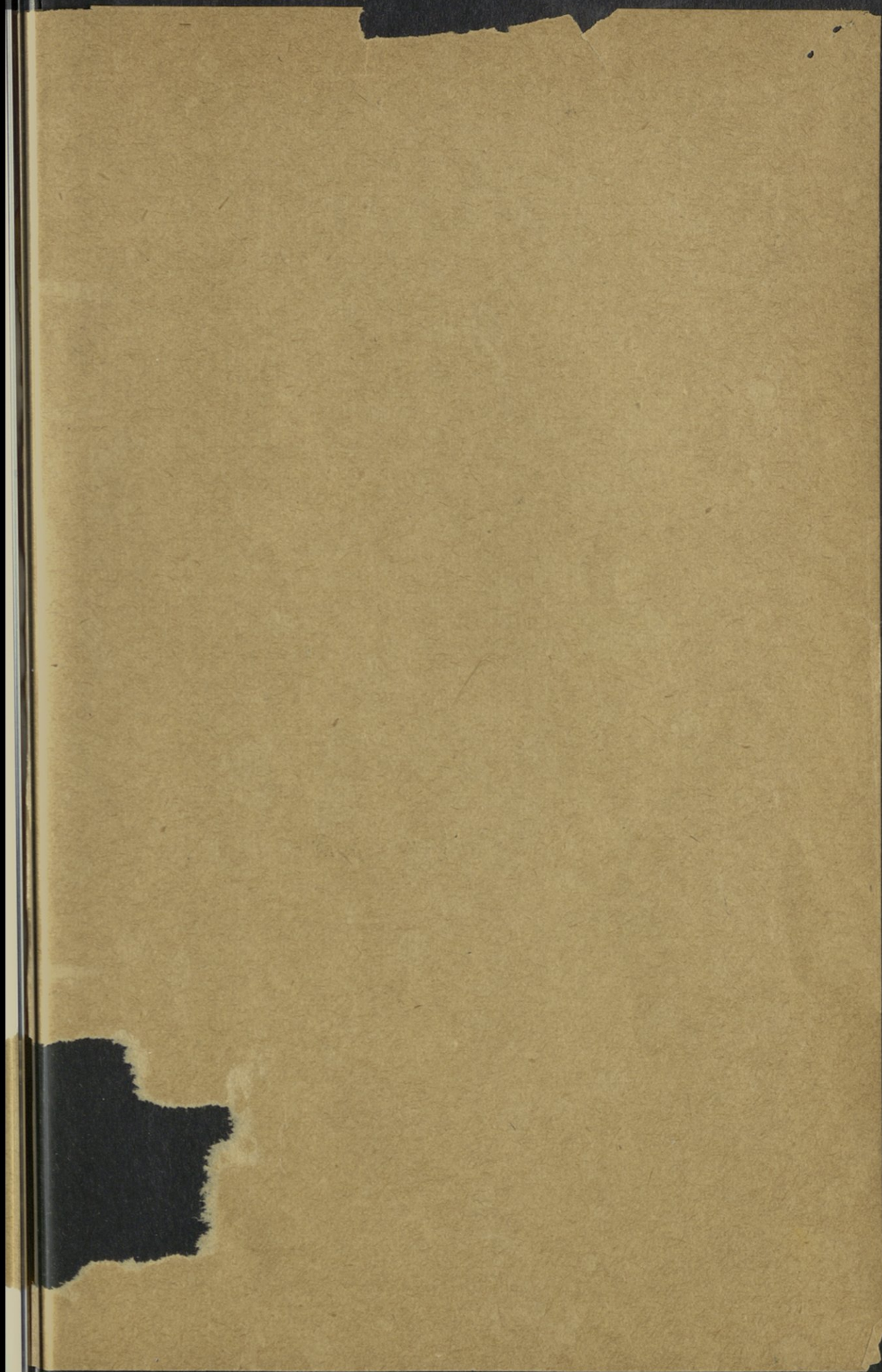
الإنسان ومصلحته لا لتسخيره واذلاله فلم يعد أحد يبحث فيه فترى الوفا من المعلمين يعلمون الدين في المساجد والمعاهد العلمية مكتفين منه بكيفية الوضوء والصلاة والحج والزكاة ولم يتعرض واحد منهم لبيان الحكمة المقصودة من هذه العبادات حتى وقر في نفوس العامة والخاصة أنها تطلب لذاتها لا أنها وسائل لغيرها . لذلك يكتفي أحدهم من الصلاة بالركوع والسجود على أسرع ما يكون كأنه مسخر لأداء حركات معدودة لا مزية فيها . وإن صام أمسك عن الأكل طول نهاره صاخباً لا غياً مشاغباً كأنه يؤدي سخرة حتى إذا قال المؤذن حي على الصلاة أقبل على مائدته بكليته فلا يزال يملأ وعاءه حتى يعجز عن الحركة ثم يأخذ في التنقل من ناد إلى ناد حتى يجيء وقت السحور فيعاود الأكل جهد استطاعته وهكذا فلا ينسلخ شهر الصوم إلا وفي معدته أثر سيء من ذلك النهم الذي سماه صوماً . ولكن لو كان قادة العقائد وقفوا الناس على حكمة العبادات وعرفوهم أنها رياضات لتحصيل الكمال الروحي وتوسعوا في هذا البحث الخطير بما يليق به من البيان لكان حظ المسلمين منها غير حظهم اليوم .

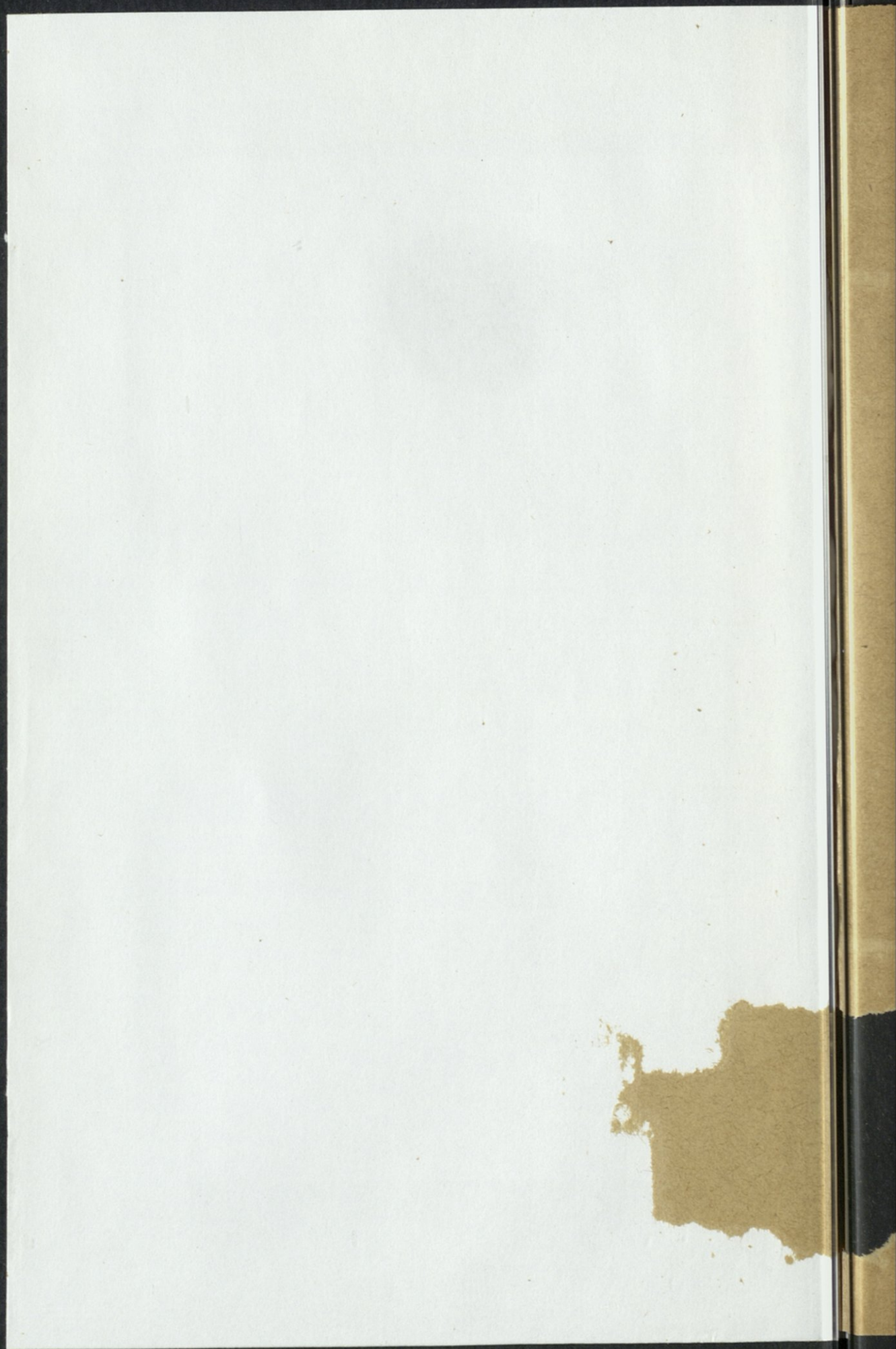
أما الأصل الثاني عشر وهو إطلاق حرية البحث لأولى البصر بالدين فقد استحال إلى عكسه فوقر في النفوس اليوم أن ليس في الامكان أبدع مما كان وأن الأمة يكفيها أن تكون عالة على أسلافها في جميع الكليات والجزئيات ليس في الأمور العبادية فقط بل وفي جميع المسائل الشرعية مما يختص بالمعاملات ولم يكفهم هذا التضيق حتى قروا أنه لا يجوز لإنسان أن يخلط بين المذاهب فيقلد إمامين في وقت واحد فتقرر العمل بمذهب أبي حنيفة وحده وترك ما عداه من المذاهب وفي هذا من الحرج على أمة برمتها ما فيه . فبينما نرى للأمم الأوربية جماعات تشريعية تواصل العمل في سن النظمات وتقنين القوانين وتنقيح الأصول وتحديد مآثر منها وبطل موجهه ، ترى المسلمين

جامدين على شكل واحد منها لا ييغون عنه حولا . فلو كان في طبيعة دينهم ما يحرم عليهم النظر والتجديد لكان لهم بعض العذر فما بالهم ودينهم يحضهم على النظر ويزعهم عن الوقوع في الجمود ، وأئمتهم قد تبرأوا ممن يأخذ بأقوالهم بدون نقد وقرروا أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة
 هل خفي عن المسلمين اليوم أن الحوادث تتجدد وأن النظمات تبلى كما تبلى
 الأثواب ، وأن القوانين تتطور في حالات شتى لتتفق مع مصلحة الأمة ؟

انتهى

١٠٨ - ١٦٧





CLUB LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00511203

